أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الدكتور محمد البهي

يتولى وزارة الأوقاف والأزهر

من دلائل رضا الله عن تطوير الأزهر على الوضع الذى أقره قانونه الثورى الجديد أن هيأ له أسباب التوفيق ومهد له سبل التحقيق ، فجعل جملة أمره كله فى يد ابن مخلص من أبنائه ، وعلم بارز من علمائه ، ومصلح قادر من كفاة الإصلاح ، توفر له مع العلم الواسع والذكاء اللماح النشاط المثمر والحزم المدبر والتصرف اللبق — ذلك هو الدكتور محمد البهى الذى تخرج فى الأزهر وفى جامعة همبرج ، ثم سمت به كفايته إلى أن يكون أستاذا للفلسفة فى الجامعة الأزهرية ، فراقبا للبحوث الإسلامية ، فمديرا للثقافة العامة ، فمديرا لجامعة الأزهر ، فوزيرا للأوقاف والأزهر ، فكان فى كل منصب تولاه مثال الأزهرى المتحرر عن علم ، والعالم المجدد عن بصيرة ، والأستاذ المرشد عن خبرة .

شعر هو وزميله وصديقه الدكتور محمد عبد الله ماضى ـ وكيل الأزهر ، وهما يطلبان العلم فى ألمانيا ـ بتخلف الأزهر عن أداء رسالة الإسلام كما ينبغى أن تؤدى فى هذا العصر ، فكتبا فصولا قيمة فى بعض مسائل العلم ومشاكل التعليم ، نشرت يومئذ فى مجلة الرسالة ، فأبانت عن فضلهما وسبقهما إلى فكرة الإصلاح الدينى التى انبعثت فى نفسيهما من روح صاحب (البعثة) الإمام محمد عبده ، ثم وجدا بعد العودة فى الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت تمثيلا قويا صادقا لهذه الفكرة منذ عهد المراغى فانضويا إليه ، وتألفت بإمامته وقيادته تلك الجبهة المصلحة التى دعت وسعت فى عهد الإمام عبد المجيد سليم إلى أن يكون الأزهر وارث الدعوة وحارس العقيدة ، منار الهداية والدراية فى العالم الإسلامى الجديد .

ثم أراد الله صاحب الدين ورب الأزهر لآمال المصلحين أن تتحقق ، ولأحوال الأزهريين أن تستقيم ، فأسند شياخة الأزهر لشلتوت ، ووكالة الأزهر لماضى ، ووزارة الأزهر للبهى ، فلم يبق للذين استبشروا وكبروا لتطوير الأزهر وتجديده إلا أن ينتظروا إسفار الأمل عن وجه الفوز ، وانكشاف العمل عن سر النجاح ؛ بتآزر هذه القوى الثلاث ومعها قوة عبد الناصر ومن فوقها جميعا قوة الله ؟

رئيس التحرير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الدكتور محمد البهي

يتولى وزارة الأوقاف والأزهر

من دلائل رضا الله عن تطوير الأزهر على الوضع الذى أقره قانونه الثورى الجديد أن هيأ له أسباب التوفيق ومهد له سبل التحقيق ، فجعل جملة أمره كله فى يد ابن مخلص من أبنائه ، وعلم بارز من علمائه ، ومصلح قادر من كفاة الإصلاح ، توفر له مع العلم الواسع والذكاء اللماح النشاط المثمر والحزم المدبر والتصرف اللبق — ذلك هو الدكتور محمد البهى الذى تخرج فى الأزهر وفى جامعة همبرج ، ثم سمت به كفايته إلى أن يكون أستاذا للفلسفة فى الجامعة الأزهرية ، فمراقبا للبحوث الإسلامية ، فمديرا للثقافة العامة ، فمديرا لجامعة الأزهر ، فوزيرا للأوقاف والأزهر ، فكان فى كل منصب تولاه مثال الأزهرى المتحرر عن علم ، والعالم المجدد عن بصيرة ، والأستاذ المرشد عن خبرة .

شعر هو وزميله وصديقه الدكتور محمد عبد الله ماضى ـ وكيل الأزهر ، وهما يطلبان العلم فى ألمانيا ـ بتخلف الأزهر عن أداء رسالة الإسلام كما ينبغى أن تؤدى فى هذا العصر ، فكتبا فصولا قيمة فى بعض مسائل العلم ومشاكل التعليم ، نشرت يومئذ فى مجلة الرسالة ، فأبانت عن فضلهما وسبقهما إلى فكرة الإصلاح الدينى التى انبعثت فى نفسيهما من روح صاحب (البعثة) الإمام محمد عبده ، ثم وجدا بعد العودة فى الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت تمثيلا قويا صادقا لهذه الفكرة منذ عهد المراغى فانضويا إليه ، وتألفت بإمامته وقيادته تلك الجبهة المصلحة التى دعت وسعت فى عهد الإمام عبد المجيد سليم إلى أن يكون الأزهر وارث الدعوة وحارس العقيدة ، منار الهداية والدراية فى العالم الإسلامى الجديد .

ثم أراد الله صاحب الدين ورب الأزهر لآمال المصلحين أن تتحقق ، ولأحوال الأزهريين أن تستقيم ، فأسند شياخة الأزهر لشلتوت ، ووكالة الأزهر لماضى ، ووزارة الأزهر للبهى ، فلم يبق للذين استبشروا وكبروا لتطوير الأزهر وتجديده إلا أن ينتظروا إسفار الأمل عن وجه الفوز ، وانكشاف العمل عن سر النجاح ؛ بتآزر هذه القوى الثلاث ومعها قوة عبد الناصر ومن فوقها جميعا قوة الله ؟

رئيس التحرير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في القاهرة
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث — السنة الرابعة والثلاثون — جمادى الأولى سنة ١٣٨٢ هـ - أكتوبر ١٩٦٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أدبنا بين الواقعية والكلبية

بقلم : أحمد حسن الزيات

الواقعية مذهب من مذاهب الأدب عند الإفرنج في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، والكلبية مذهب من مذاهب الفلسفة عند الإغريق في القرن الرابع قبله . فالجهة الجامعة بين المذهبين لا تتمثل في الذهن ، لا من الزمن ولا من الموضوع ولا من الغاية . فما الذي حملني إذن على أن أجمع بينهما في هذه الكلمة ؟.

استمر على كل حال في القراءة فلعلك واجد فيما تقرأ علة هذا الجمع وطبيعة هذه العلاقة.

الكلبية كما فهمها (ديوجين) . والواقعية كما فهمها (بلزاك) . والطبيعية كما فهمها (زولا) ، تتفق جميعاً في تنظيم حياة الإنسان أو الفن على مقتضى الطبيعة . . فالكلبيون كانوا يرون الحكمة في رفض الثراء ونبذ الفضول ، والعزوف عن اللذة ، والزهد في الرفاهية ، والتحلل من كل قيد للاجتماع ، والخروج على كل نظام للسلوك . وكان زعيمهم يسكن في برميل ويمشي حافياً ويغترف الماء بيده ، ويستتر برداء واحد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على اللحم ، وينام تحت السماء فى أروقة المعابد طول العام . وسموا بالكلبيين لأنهم كانوا يحملون على عابرى السبيل بالتهكم اللاذع فشبهوهم بالكلب العقور .

والواقعيون كانوا يرون البلاغة فى تصوير الطبيعة على الواقع المحسوس ، وتفسير غوامضها على المعنى الحق . والواقع يكون خيراً كما يكون شراً ، والمعنى يكون حسناً كما يكون قبيحاً ، ولكنهم يجعلون بالهم إلى دقائق الحياة المبتذلة القبيحة أكثر مما يجعلونه إلى دقائقها المصونة الجميلة ، لاعتقادهم أن الشر فى الناس هو الأصل ، وأن القبح فى الطبيعة هو الجوهر .

شق الطربوش الذهبى فى فم الإنسان تجد الناب . واخلع القفاز الحريرى عن يده تجد المخلب .

فالواقعية تلاحظ الطبيعة وتنقلها نقلا موضوعياً محايداً أميناً لاتدخل الفنان بشعوره الشخصى فيه ، ولا تحفل بإظهار السمات الجمالية به ، ولا تقصد إلى استنباط المغزى الخلقى منه .

وللواقعية فى معنى من معانيها بذرة فى شعر عبد الله بن المعتز . فقد كان يعرف الشر ويبرر هذه المعرفة ، ويهون القبح ويعلل هذا الهون . فهو فى الشر يقول :

عرفت الشر لا للشر
لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر
من الناس يقع فيه

ويقول فى القبح :

قلبى وثاب إلى ذا وذا
ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى
ويرحم القبح فيهواه

على أن هذه البذرة الضائعة فى حقول شعره كانت أضعف من أن تثمر المذهب الواقعى فى الأدب العربى ، لأنها خاطرة من خواطر شاعر ، لا فكرة من فكر فيلسوف .

والواقعية مجالها القصص والمسرح لا الشعر والقصيدة .

والطبيعيون يشاركون الواقعيين فى تصوير الواقع ، ولكنهم ينفردون عنهم بطريقة تفسيره ، فالواقعى يكتفى بالملاحظة والتسجيل والتعليل . والطبيعى يزيد على ذلك التجربة والوراثة والعلم . وهؤلاء وأولئك يشترطون (الفنية) فى المذهب . فلا يخرجون على قواعد اللغة ولا يتمردون على قوانين البلاغة ، ولا ينقلون عن الطبيعة نقل المصور الفوتغرافى يقف عند حد الآلة ولا يضيف إلى الصورة نوراً من فكره ولا لوناً من خياله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

صحيح أن الواقعية من حيث الفكرة تعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة ، ولكن من الصحيح أيضا أنها من حيث الصورة لا تقص أجنحة الخيال ولا تطفىء ألوان الحسن . أليس من زعماء الواقعية وأساطينها (فلوبير) صاحب (مدام بوفارى) ؟ إن واقعيته فى الموضوع لا فى الشكل ، وإن شعبيته فى الفكرة لا فى الصورة ، وإن أسلوبه آية فى البلاغة والدقة ، وغاية فى الأناقة والجمال .

كتب قصته الجميلة (سلامبو) عن الحضارة الفينيقية فى قرطاجنة ، فاقتضته واقعيته التى تعتمد على الوثائق أن يقرأ فى موضوعها ثلاثة وخمسين كتابا ، وأن يزور أطلال هذه المدينة فيستنطق الآثار ، ويستوحى المنازل ، ويجمع الأسانيد ، ويرصد الأحاسيس ، ويصور المناظر . واقتضته (فنيته) التى تعتمد على الألوان أن يصوغها فى نظام من البلاغة موثق باللفظة المختارة ، مشرق بالعبارة العذبة .

وقل مثل ذلك فى سائر زعماء المذهب كبلزاك ، وموباسان ، وزولا .

فإذا فهمنا الواقعية فى أدبنا المعاصر على أنها تصوير للناحية الدنيا من حياة الشعب الكادح بما فيها من عناء وشقاء وألم ، وما بها من شذوذ وعوج ونقص ، لنوقظ الطموح إلى الكمال فى شعور العامة ، ونحرك النزوع إلى الإصلاح فى نفوس الخاصة ، كان هذا الفهم حقا لا جدال فيه .

* * *

أما إذا فهمناها على أنها الانطلاق من كل قيد ، والتنكر لكل عرف ، والاستخفاف بكل قيمة ، والنزول بالفن نفسه إلى مستوى إدراك الرجل العامى وذوقه ، فتكتب له الأدب بقلم (العرضحالجى) ، ونعزف له الموسيقى بزمارة الراعى ، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش ، فتلك هى الكلبية لا الواقعية .

أنا أميل بطبعى إلى الواقعية بمعناها الفنى الصحيح ، ولكنى أكره لنفسى ولغيرى غلو الغالين فيها بنقل الطبيعة والحقيقة نقلا آليا ، قبحا بقبح ، وعريا بعرى ، وغثاء بغثاء ، دون أن يسمحوا للذوق أن يهذب ولا للفن أن يجمل . وأرجو أن تظل الواقعية كسائر المذاهب الجدية محدودة بحدود الفن محكومة بأحكامه ، وحيثما يكن الفن يكن الجمال .

إن الفن كما أعتقد لا تطلب منه الحقيقة التى تطلب من العلم ، إنما يطلب منه أن يعرض شبهها مجملا بألوانه مزينا بوشيه ، وكأنما وضع بين الفن والنفس ميثاق ترخص له الحواس بمقتضاه أن يزور الحقيقة ، وهو فى مقابل تلك الرخصة يحقق لها السرور واللذة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فرخصة الشعر أن يتكلم بالوزن والقافية، ويعبر بالمجاز والاستعارة، ويرتفع بالقصيدة أو المسرحية إلى مستوى لا يكون فى الحقيقة. ورخصة التصوير أن ينقح الواقع كما يحب، ويغير الوضع كما يشاء، ويرتفع بالصورة أو المثال إلى مستوى لا يوجد فى الطبيعة. ورخصة الموسيقى أن تذهب فى الإيقاع مذهب الإبداع فتؤلف من اختلاف الأصوات وتنوع النبرات وتعدد الطبقات لحنا متكاملا متلائما لا يطرق الآذان له مثيل فى الواقع. وهذه الرخص التى تمنحه الحقيقة لابد منها للفن على اختلافه ليبدع ما لم تبدعه الطبيعة من الجمال الذى يبعث الإعجاب ويحدث اللذة.

إن فى الفن شيئا أكثر من التقليد المحض. استمع إلى آلة تقلد تغريد البلبل كما هو بسذاجته ورتابته فلا تجد فيما تسمع جمالا يعجب ولا لحنا يطرب، ولكنك إذا استمعت إلى الآلات الموسيقية تعبر عنه فى سمفونية أعجبت كل الإعجاب وطربت غاية الطرب، لأن الفن قد دخل التقليد فى هذه الحال فنقح وصحح وزاد.

لم توجد فى الطبيعة سمفونية (بتهوفن)، ولم توجد فى الخليقة فينوس ميديتشى. وإنما الفن وحده هو الذى ألف من النبرات الرخيمة المتفرقة فى أصوات الطبيعة هذه السمفونية، وصاغ من الملامح الجميلة الموزعة على أجسام الخليقة هذا التمثال. وعلى نحو من ذلك نقول فى الشاعر الذى ينظم من الأحاسيس الذاتية والمناظر الطبيعية قصيدة، وفى الكاتب الذى يؤلف من الوقائع الفردية والطبائع الإنسانية قصة. ومن الجائز ألا يكون لهذه القصيدة مثال فى الكون، ولا لهذه القصة وجود فى المجتمع، ولكن العبرة فى الفن الحدوث الممكن لا الحدوث المحقق.

ذكرت العلاقة بين الفن والطبيعة لأقول إن الواقعيين الغلاة الذين يتوخون الحقيقة ويتحرون الواقع، ويؤثرون الدون وينكرون الذات إنما يكفرون بأثر الفن فى رفع النفوس ودفع البؤوس وتجميل الحياة.

* * *

ربما كان الخلاف بين الواقعية العربية والواقعية الأوربية، أو بين الواقعية المتطرفة والواقعية المعتدلة، أن من الواقعيين العرب من يريد أن يهبط باللغة والأسلوب إلى مستوى الأميين فيكتب لهم بالعامية ويدنى المعانى من أفهامهم بتجريد الأسلوب من خصائصه البلاغية وسماته الجمالية حتى لا يكون الأدب فى ذاته غاية يصفو به الذوق وتسمو به الروح وتجمل به الحياة، والواقع الذى تحققته من اختلاطى بالشعب فى حياة القرية وتحرير الرسالة أن القارئين من الزراع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والصناع يفضلون الشعر على الزجل ، ويتأثرون بالمقال البليغ أكثر مما يتأثرون بالقول الساذج . والأدب هو الجزء السماوى فى الإنسان ينزع به دائما إلى ما هو أعلى وأكمل ؛ فهو له كالجناحين للملك . يرفعه من كثافة المادة إلى لطافة الروح . ومن واجب الأديب أن يقوى هذا النزوع فى نفوس الشعب بتصوير المثل العليا للجمال والفضيلة وحمله بطريق التثقيف على أن ينظر إليها من فوق رأسه لا من تحت قدميه .

إن الحياة فيها المسجد والسوق ، وفيها المدرسة والمصنع ، وفيها الحديقة والمطعم ، وفيها الإستديو والورشة ، وكل جهة من الجهات المعنوية تعدل الجهة التى تقابلها من الجهات الحسية ، فلماذا نكره الأدب على أن يتقلب فى الجهات الدنيا لا فى الجهات العليا وأن يعيش مع ابن آدم فى حيوانيته لا فى إنسانيته ؟

إن الأدب للشعب كله ما فى ذلك خلاف ، ولكنه إذا نزل إلى عامته فإنما ينزل ليرفعهم إلى السطح لا ليغوص معهم إلى القاع . وقول من يقول إن الأدب الأدب يدخل بهذا المعنى فى قول من يقول إن الأدب للحياة .

إن الواقعية بمعناها العام مذهب من مذاهب الأدب . والأدب عند الأمم جميعا فكرة سليمة فى صورة جميلة ، وجمال الصورة فى كل لغة لا يتحقق أولا وبالذات إلا بسلامة العبارة من الخطأ والغثاثة .

والواقعية كما قلت لا تعادى الفن ولا تنافيه ، والواقعيون أجمعون هم من الكتاب الأفذاذ الذين أوتوا ملكة البيان وفقهوا أسرار البلاغة ، وما نعرف أحدا منهم تعاطى الكتابة فى لغته وهو ينكرها كل الإنكار ويتنكر لأدبها كما التنكر ، فهل يريد الواقعيون العرب أن يكونوا بدعا من سائر الكتاب فيفصلوا بين الواقعية والفن وبين الكتابة واللغة ؟ .

إن كانوا يريدون ذلك فهو الخلاف الذى لا ينتهى بيننا وبينهم ، وإن كانوا يدعون إلى واقعية عربية تنبثق من حياة الشعب ، وتحرص على تقاليد العروبة ، فتؤثر الفصحى وتقدس الخير وترعى الجمال فإنا وإياهم على كلمة سواء .

أحمد حسن الزيات

الإيمان والاستقامة طريق الأمن والسلام

لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

قال الله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وجاء في الأربعين النووية ، في رواية لمسلم . . أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : (قل آمنت بالله ، ثم استقم) .

كلمتان عظيمتان : الإيمان والاستقامة . هما أساس السعادة ، وهما طريق الأمن والسلامة ، يجمعان عناصر الإسلام ، ويضمان جميع وسائل الخير ، وخصال البر .

كلمتان : هما الإسلام كله . بهما يتحقق الإسلام ، فليس الإسلام نسبة يعرف بها تعداد السكان ، وليس الإسلام كلمة التوحيد مجردة تجرى على اللسان ، إنما هو تعبير صادق عما استقر في القلب وملك على الإنسان الحس والنفس من اعتقاد وحدانية الله في الربوبية العامة للعالم كله : أرضه وسمائه ، مائه وهوائه ، نباته وحيوانه . . أجساما بالخلق والتنمية ، ونفوساً بالهداية والإرشاد وتوضيح سبل الحق للسير فيها ، وكشف سبل الباطل للإعراض عنها ، ثم اعتقاد المحاسبة والجزاء يوم الدين « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » . وبذلك يكمل في الإنسان الجانب العلمي بإدراك الحق والإيمان به .

الإقرار والعمل :

أما الاستقامة : فهي الإقرار بالحق ، والاستمرار في العمل على مقتضاه بالتزام الطريق المستقيم الذي رسمه الله في كتبه ، وبينه على ألسنة رسله ، وبها يكمل في الإنسان جانبه العملي بفعل الخير والصلاح . فمن حاد عن شيء في العقيدة أو في عمل الخير ، فقد اعوج ومال عن الصراط المستقيم .

وكثيراً ما تحدث « القرآن الكريم » عن الاستقامة ، فسورة « الفاتحة » التي هي أم الكتاب ، والتي هي أول سورة كاملة نزلت من القرآن ، والتي طلب قراءتها من المؤمنين في كل صلاة ، تهتم — بعد إثبات الحمد والربوبية وملك يوم الدين لله — بتوجيه المؤمنين إلى الدعاء ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم . وترشدهم إلى أن طريق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحصول على نعمة الله المطلقة : نعمتى الدنيا والآخرة « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم » .

وسورة « الأنعام » تذكر أن اتباع شرع الله فى التوحيد والخلق والمعاملة هو ما يأمر الله به ويحذر الإعراض عنه . ثم يقول « وأن هـذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

المستقيمون والمنحرفون :

وسورة « هود » ترسم المنهاج الكامل للاستقامة فى الحصول على السعادة والفلاح والسلامة ، وقد جاء ذلك المنهاج بعد أن صورت السورة الدعوة ، وذكرت دلائلها ، وقدمت صورة تاريخية واضحة عن عاقبة الذين استقاموا على أمر الله ، والذين انحرفوا عنه . أما الذين استقاموا فهم الأنبياء الداعون ، وأما الذين انحرفوا فهم الأقوام المدعوون .

والاستقامة كما أمر الله ، هى التزام الخط المستقيم الذى لا عوج فيه ولا التواء ، وبه شبه طريق الحق الذى رسمه الأنبياء فى العقائد والعبادات والأخلاق ، والأصول العامة للمعاملات ، وأطلق عليه « القرآن الكريم » « الصراط المستقيم » .

فهى تتناول المحافظة على العقيدة ، والمحافظة على العبادة ، والمحافظة على المعاملة . والمحافظة على التشريع ، تتناول المحافظة على العقيدة فى أصلها ، والبعد بها عن مظاهر الشرك ، تتناول المحافظة على العبادة من جهة البعد بها فى أصلها وكيفياتها عن وجوه الابتداع فيها ، وتتناول المحافظة على المعاملة من حيث تحرى الخير فيها ، وعدم الإضرر بها ، والاحتيال عليها ، وتتناول المحافظة على التشريع بحيث لا ينقض أصل من الأصول التى نص عليها فى كتابه ، وألا يخرج بها عن دائرة العدل الذى يريده الله .

وسط فى كل شىء :

وهى — بعد ذلك — الحد الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط ، وسط فى العقيدة بين الذين ينكرون الإله ، ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية ، وبين الذين يقولون بالتعدد ويتخذون مع الله أندادا .

وسط فى الأخلاق بين الذين يتحللون من كل الفضائل ، وبين الذين يشتطون فى تصور الفضيلة والتزام طرق التشدد فيها .

وسط بين المادية البحت ، وبين الروحية البحت ، وسط فى طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة للناس ، وسط فى تحديد علاقة الفرد بالجماعة .

أما منهاج الاستقامة الذى تضمنته سورة « هود » فهو فى قوله تعالى من أواخر السورة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وأول ما نلمح فى هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى سوى فيها بين الحاكم والمحكوم ، وبين الراعى والرعية بالخطاب والأمر ، وكان ذلك أصلا من أصول المساواة فى الإسلام قضى به على أثر من آثار التميز والطبقية ، فالحاكم كالمحكوم فى نظر الإسلام ، يقام عليه الحد إذا ارتكب ما يوجب الحد . . إذا قتل قتل ، وإذا زنى رجم أو جلد . . وإذا شرب الخمر عزر .

القصاص من النبى :

لذلك خوطب النبى صلى الله عليه وسلم بكل ماخوطبت به أمته ، وكان أول المنفذين على نفسه وفى نفسه . . مكن من ضربه ليقتص منه ، وقال لابنته كلمته الحاسمة: « يا فاطمة لا أغنى عنك من الله شيئا » .

لم يخصه ربه بشىء من الأحكام ذات الأثر العام فى الأمة وإنما كانت خصوصياته فيما يتصل بشخصه ، كالتهجد وحرمة التزوج بغير من تزوجهن ، وحرمة زوجاته على أمته بعد موته .

فى هذه الآيات طلب الله إلى رسوله والمؤمنين معه أن يستقيموا على الطريقة كما أمر ، ثم عاد يؤكد هذا الأمر ، يوضح حدوده ويبين منهجه .

فنهى عن الطغيان «ولا تطغوا» والطغيان مجاوزة الحد بالإفراط أو التفريط فى العقيدة وفى العبادة .

فالطغيان فى العقيدة أن يظن المرء بالله عجزا ، أو يزعم أن لغيره فى الأمر شأنا .

والطغيان فى العبادة بالإعراض عن طاعة الله ودعائه ، والتوجه بهما إلى غيره ، وباختراع عبادة لم ترد عنه ، وتحليل الحرام أو تحريم الحلال ، والاعتداء على الحقوق ، وكفر النعمة والاغترار بالقوة .

وقد بين القرآن فى أكثر من موضع عاقبة الطغيان ، وضرب لنا الأمثال بالذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب .

كيف تتم الاستقامة ؟ :

ولم يكف فى نظر الإسلام أن يستقيم المرء فى نفسه ، وإنما تتم الاستقامة بتجنب الطغيان والظلم وعدم الميل إلى الظالمين أملا فى خير أو خشية من شر « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » فان السكن إلى الظالم يغريه بظلمه ، فتموت الفضيلة وتستشرى الرذيلة وينهار المجتمع .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإنما يستهدف هذا الأصل العظيم من أصول الاستقامة كسر شوكة الطغاة وتقليم أظفار الظلمة حتى تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، ولا يجدوا ملجأ من الله إلا إليه بتطهير أنفسهم والرجوع إلى الدين الحق .

وقد حذر القرآن من اتخاذ البطانة والولاية من المفسدين حتى لقد جعل أولياء الظلمة فى منزلتهم « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .

فالبعد عن الطغيان واجتناب الطغاة أصلان متكاملان تتحقق بهما الاستقامة التى أمر الله بها وهدى المؤمنين إليها وللوقاية من الطغيان أمر الله عباده بالصلاة والصبر .

« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

فالصلاة تربط الإنسان بربه عن طريق المناجاة والدعاء وإسلام النفس وتهذيب الخلق ، وتبديل غرائز الخير بغرائز الشر.

والصبر يعصم الإنسان من الزلل فى مواقف الفرح والجزع . . فرح النفس عند النعمة والجزع عند النقمة « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » .

إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين » .

ثم أعقب القرآن هذا المنهاج بآيات التحسر والتندم على تقصير القرون الأولى فى النهى عن الفساد وترك المترفين يعبثون ويبغون « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » .

كما أعقبه ببيان عاقبة الظالمين « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

العقل والتكليف :

وألزمهم الحجة بما أودع فيهم من عقل يميزون به الخير من الشر والنافع من الضار وتركهم إلى اختيارهم تحقيقا للابتلاء والتكليف « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

فالاختلاف قوام الحياة والباعث على التنافس ، والله جلت حكمته لم يرد الحياة صامتة جامدة وإنما أرادها متفاعلة متجددة ولن تتحقق هذه الحكمة إلا إذا ترك الناس وتصوراتهم وعقائدهم وخططهم التى يرسمونها لأنفسهم فى الحياة .

وحسب الحكمة الإلهية أن ترشد بالآيات إلى طريق الحق وسبيل السعادة ، ثم يكون للمحسن إحسانه وللمسيء إساءته .

هذا هو منهاج الاستقامة كما جاء به القرآن الكريم هدى وموعظة وذكرى للمؤمنين .

محمود شلتوت

المقامة بين المحافظة والتجديد

للأستاذ عباس محمود العقاد

المقامة فن من الكتابة النثرية لا يعرف له مثيل فى غير اللغة العربية .

ولعله أسلوب من الكتابة الفنية لا تصلح له لغة غيرها ، لأنه يقوم على تنسيق الفواصل والقوافى وتجميل اللفظ والمعنى بالمحسنات الظاهرة والمضمرة ، وليس أنسب لهذا الأسلوب من لغة توزن فيها الألفاظ وتطرد فيها أوزان الاشتقاق ويكثر فيها استخدام الجناس والتورية كما يكثر فيها التوفيق والتفريق على حسب مواقع الإعراب والإعجام .

وقد وجدت للمقامة أغراضها التى تناسبها وتميزها من المقالة ومن القصة كما تميزها فى الشعر من القصيدة والمقطوعة ، وتحرى المقاميون هذه الأغراض ، بسليقتهم وعلى وفاق ذوقهم ، منذ نشأت المقامة فى القرن الرابع الهجرى إلى أن أحياها الكتاب المنشئون فى أواخر القرن الثانى عشر ، على مثالها الأول بغير تعديل كبير فى موضوعها وأسلوبها .

فمن أغراض المقامة الوصف والتجميل ، والعاطفة والنكتة النادرة والتلقين أو التعليم ، ويسبق هذه الأغراض جميعا غرض شامل تشترك فيه جميع المقامات على اختلاف أغراضها الأخرى ، وهو ما نسميه غرض الزينة أو غرض الجمال إلى جانب الفهم والإفادة ، وذلك غرض مقصود فى كل صناعة من الصناعات ، يتحراه المجيدون فى كل صناعة كما يتحرون وجه الفائدة منها ، فلا تخلو صناعات البناء والكساء والطعام ، بل الدواء والدراسة ، من جهود تبذل لإقامة الصرح الرائع وتطريز الحلة الرائقة وتهيئة الصحاف المشتهاة وإعداد العقاقير والكتب فى شكلها المستحب ووعائها المقبول .

ففى المقامة الوصفية نقرأ أوصاف المناظر والأشياء وأوصاف الإنسان والحيوان ، وأوصاف المدن العامرة والآنية الفاخرة ، وغيرها من الأوصاف العارضة ، كلما تناولها الحديث ، أو كلما شاء الكاتب أن يجعل الوصف غرضا مقصودا لمناسبة يختارها ولا يمعن كثيرا فى بحثه عن هذه المناسبة .

وفى المقامة التحليلية يعرض لنا الكاتب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« صورة شخصية » لمن يتحدث بأسمائهم أو يتحدث عن أحوالهم وأخبارهم ، تتمثل فيها جوانب الجد منه وجوانب الفكاهة ، وجوانب الواقع أحيانا إلى جوانب التخيل والتقدير ، ويغلب عليها أن تكون من قبيل الصور المرحة التي شاعت في الصحف الفكاهية واقترنت بالموضوعات الهزلية ، وإن كان موضوع المقامة لا يأبى الجد في تصوير «الشخصيات» التي تذكر بمفاخرها وآثارها ، وعظائم أخلاقها وأفكارها .

وفي المقامة العاطفية يوصف الشعور الإنساني بكلام يحفظ جنانه ويروى لما فيه من موضع الشاهد والعظة ، وتلحق فيه الكتابة المنثورة بالكتابة المنظومة على غاية ما يستطاع من مشابهة النثر والنظم ومقارنة الكاتب الفنان للشاعر الفنان .

وليس أبلغ ، ولا أدعى إلى الإعجاب ، من النكتة الرائقة في الكلم الرائق ، أو من النادرة الشائقة في اللفظ الشائق ، فالمقامة في موضوع النكتة والنادرة قصة وزيادة ، إذ يراد فيها الأسلوب من أجل القصة وتراد فيها القصة من أجل الأسلوب ، وتتمشى القصة وأسلوبها معا موضوعين اثنين في قالب واحد .

أما مقامة التلقين والتعليم فتلك هي المقامة التي يتعلم فيها القارىء فكرة ولغة ، أو يتعلم فيها حقيقة علمية في قالب من البيان والبلاغة ولا يشترط أن يكون العلم بالحقيقة وقفا على المقامة البليغة لأنها قد تكون من الحقائق التي يتعلمها من شاء في كتب الدراسة ، ولكن يشترط في المقامة ، أن تجعل تلك الحقيقة ميسرة الحفظ والرواية في مقام المساجلة والمنادمة ، ووسيلة من وسائل الفهم مع تهذيب اللسان والقدرة على حسن البيان .

* * *

فالمقامة بوضعها وموضوعها قد أنشأت في اللغة فنا مستقلا من فنون الكتابة لا يغني عنه فن المنثور أو المنظوم .

لأنها وسط في موضوعها بين موضوعات الفهم والدرس وموضوعات الذوق والخيال .

وهي وسط بين الشعر والنثر ، وبين الحكاية والصورة ، وبين التعليم والتجميل ، وبين الفن للفن من حيث القالب والصياغة ، والفن لمعانيه ومطالبه من حيث النظر إلى الحياة النفسية أو الحياة الاجتماعية .

وحق البقاء مكفول لكل فن جميل نافع يصلح لرسالة في عالم الثقافة الإنسانية لا يغني غيره مثل غنائه فيها .

فلماذا وجدت المقامة عندنا ثم فقدت مكانها ؟ وكيف تعود إلى ذلك المكان إذا كان من حقها أن تعود إليه ؟

* * *

إن المقامة ضاعت فى معركة المحافظة والتجديد ، ولكنها لم تضع على أيدى المحافظين العارفين بما يحافظون عليه ولا على أيدى المجددين العارفين بما ينكرون من القديم وما يستحسنون من الجديد ، ولو كان لها قارئ خاص كقراء القصيدة والمقالة والقصة لانفرد بها الكاتب الخاص الذى يجيدها ويترقى بها ويتوسع فيها ، ولكنها ليست من القراءة التى تطلب فيستجاب الطالب ، وإنما هى زينة حسنة توجد فيوجد من يستحسنها ، وقلما يلح فى طلبها إلحاحا يفرضها على من يستطيعها ، من زمرة المحافظين كان أو من زمرة المجددين .

فالمحافظون لايضيعون المقامة لأنها وصلت إليهم مع التراث القديم الذى يحافظون عليه .

والمجددون لا يستقيمون على نهجهم فى نقد البلاغة إذا تعللوا انقد المقامة بعلة الوزن والقافية التى يجيزونها فى الشعر أو بعلة التجميل الفنى التى يقبلونها أو يطلبونها فى النثر .

أما إن كان التجديد عندهم إنكاراً للوزن والقافية والتجميل الفنى جميعا فذلك هدم وليس بتجديد ، وهو هدم للأدب بمنظومه ومنثوره من أساسه ، وليست المقامة وحدها مخصوصة فيه بالإنكار .

نعم يحق للمجدد أن ينكر استخدام أسلوب المقامة فى موضوعات شرح العلوم أو تفصيل مسائل القانون والسياسة ، أو بيان وجوه النقد فى المسائل الأدبية كغيرها من مسائل الكتابة المرسلة فى لغتنا العربية وفى جميع اللغات ، ولكن تحريم أسلوب المقامة فى الموضوعات التى تصلح لها وتجمل بها هو مذهب التجديد الذى لافرق بينه وبين التقليد ، لأن إنكار القديم لغير سبب كإنكار الجديد لغير سبب ، كلاهما مجاراة على سنة المحاكاة ، لاتستند إلى فكر ولا ذوق .

والمجددون المقلدون هم آفة النقد فى كل حركة فنية أو فكرية ، وهم - على ما نرى - أصل الإزراء على أسلوب المقامة فى موضع وفى غير موضع ، ولو أنهم خصوا هذا الأسلوب بالنقد فى غير موضعه لكانوا مجددين غير مقلدين .

فى عصر البعث اللغوى - منذ قرن مضى - كان الاحتفال بالكتابة علامة الغيرة على اللغة والقدرة على مجاراة الأقدمين فيها ، وكانت المقامة بأسجاعها ومحسناتها مثلا للكلام المحتفل به ودليلا على العناية بإحياء القديم فى الوقت الذى كان إحياء القديم فيه هدف النهضة وغاية القدرة التى تؤهل صاحب القلم لحمل أمانة الكتابة فى العصر الحديث ، فشاع أسلوب المقامة فى مقالات الصحف وفى مراسيم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحكومة وفى كتب التاريخ والجغرافية وفى نقل الكلام المترجم وشرح الكلام المنقول .

لا جرم كان من التجديد أن يتنبه رواد التجديد إلى خطأ هذا الرأى وأن يختاروا الأسلوب المرسل لموضوعات الكتابة المرسلة التى تطلب للفائدة وتحقيق العلم والفهم ولا تحتاج من تجميل البلاغة إلى مقصد غير مقصد الإبانة والإقناع وصحة اللغة وما تنطوى عليه من صدق التعبير وسلامة لفظه ومعناه .

وينتهى حق التجديد عند نقد الأسلوب فى غير موضعه، فإذا تجاوزه إلى نقد أسلوب من الأساليب فى كل موضع ولغير سبب من أسباب الفن الجميل أو أسباب الزينة البليغة المطلوبة فى كل صناعة ، فذلك هو ابتداء التقليد عند نهاية التجديد .

ويعاب التقليد فى هذا الفن من فنون اللغة العربية لأنه حرمان لها من مزيتها بين اللغات، وهى مزية توفر فيها أسباب الجمال الفنى فى الكتابة النثرية على مثال يضارع هذا الجمال فى الكتابة المنظومة ، من غير إخلال بمطالب الذوق السليم فى الأغراض التى تنفصل فيها مواضيع الشعر والنثر، ولا تسمح باللقاء السائغ بين الفكر والواقع وبين العاطفة والخيال .

والمقامة هى القالب الذى ينتظر منه القارئ مقالة وقصيدة وقصة ودرسا من دروس التعليم ، ولا يستغرب شيئا من ذلك كما يستغربه منظوما فى القصيد أو منثورا فى الكلام المرسل ؛ لأنه لا يفصل هنا بين غرض الإفادة وغرض التجميل .

وما أكثر الموضوعات التى تتقبلها المقامة فى العصر الحاضر ولا تتقبلها القصيدة ولا القصة ولا المقالة بمثل هذا الترحيب ! .

مناظر السياحة فى الفضاء ، أسرار العلم التى تقرب من التخمين ، وأسرار الخيال التى تقرب من العلم فى أوصاف سكان الكواكب وعوالم الأفلاك ، خطاب يلقيه إنسان مريخى أو نبوءة يمليها إنسان أرضى على كائنات المستقبل فى عالم الحس والشهادة أو عالم الغيب والظنون ، بحث من بحوث التنجيم يتعاون فيه العالم والفيلسوف والشاعر والصوفى ورجل الدين .

أليس للمقامة عملها فى هذه المقاصد عند الشقة الحرام على ملتقى العلم والشعر، والتحقيق والتخمين، والجد والفكاهة، والحلم والعيان؟.

بلى . . . إن للمقامة لعملا كبيرا ينتظر من المجددين قبل المحافظين ، وإنه لعمل ينتظره المخلصون ممن يزعمون تحرير الشعر بإلغاء البحور والأوزان ، فإن المقامة أوفى بالغرض فى هذا المقام من شعر بلا بحور أو نثر مهلهل يلبس الحلية فى كم من كمين ، ويحمل الإيقاع بقدم من قدمين ، ولا يقنع بالمسخ فى نفسه حتى يشترط معه الشروط هدما للشعر وتغريبا للنثر عن عالم النفع وعالم الجمال .

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

صياغة مشروع لجامعة إسلامية

للفقيه الكبير: أبي الأعلى المودودي

ذلك الذي ستقرأه في هذا المقال هو ما وقع في خاطر الأستاذ الكبير أبي الأعلى من تطوير التعليم الديني، ليعود الإسلام كما شرعه الله، دستورا للحياة ونظاما للدنيا. ومشروع الأستاذ هو بتفصيل أدق وأشمل ما انطوى عليه قانون الأزهر الجديد الذي أصدرته حكومة الثورة بالجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ — فلو أن الأستاذ قرأه منشورا في عدد صفر سنة ١٣٨١ من مجلة الأزهر لاطمأن قلبه على ما تمنى للإسلام من تجدد، وللمسلمين من تقدم، ولحمد الله على أن أتيح للأزهر وهو حصن الإسلام المنيع، أن يكون مبعثا للإسلام للتطور المتحرر الصالح لقيادة الأمم في متاهة النظم الوضعية المتعارضة المتناقضة التي توشك أن تشقى ببني آدم جميعا على الهاوية. المحرر

نرى رجال العلم والفكر في مختلف أقطار العالم الإسلامي ينادون بين يوم وآخر بضرورة إدخال تغيير أساسي على نظم التعليم والتربية التي يتربى عليها المسلمون في العصر الحاضر، ويدعون إلى إقامة مؤسسات تعليمية، على الطراز الحديث، تحلي الشباب الإسلامي بمؤهلات تكفله لمهمة إرشاد الدنيا وتوجيهها في هذا العصر وفق وجهة نظر الإسلام، وأما ما أسس في الآونة الأخيرة من المعاهد لهذا الغرض في مختلف البلاد الإسلامية، فلا نكاد نرى أحدا من ذوي العلم والرأي يطمئن بها قلبه إذا ألقى نظره على أوضاعها ومناهجها للتعليم وما أتت به من النتائج. فمن الواضح، وضوح الشمس في رابعة النهار، أن الحاجة التي تمس العالم الإسلامي كله في هذا الزمان ليست هي إلى كلية للشريعة تعد علماء على الطراز القديم ولا إلى جامعة عصرية تخرج ماهرين في العلوم الغربية على الطراز الحديث، بل هي تعدو هذا وذاك إلى جامعة تكون حملة للواء الإسلام كنظام للحياة في هذا العصر.

إن العالم الإسلامي — من أندونيسيا شرقا إلى مراكش غربا — إنما يجري فيه منهجان للتعليم والتربية.

منهج لا يخرج إلا الأفراد المتحلين بعقلية الغرب، المصطبغين بصبغة ثقافته حذو القذة بالقذة. وهؤلاء هم الذين يسيرون اليوم دفة الحكومات في معظم الدول الإسلامية الحاضرة وفي أيديهم أزمة أمور الاقتصاد والسياسة والمدنية فيها. ومن دواعي الأسف أن أغلبيتهم جاهلون كل الجهل بما للدين الإسلامي من الهدى والتعاليم في أمور الحياة البشرية،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مفتتنون بالحياة الغربية . مهزومون أمام الثقافة العصرية الخلابة . فهم يقودون قطار الأمة الإسلامية إلى جهة تخالف جهة الإسلام ولا يأتى يوم إلا وهم فيه أسرع سيرا إلى تلك الجهة .

ومنهج لا يخرج إلا علماء للعلوم الدينية ينقصهم معرفة العلوم الدنيوية الحديثة . فلذا تقتصر دائرتهم فى القيام بواجب المحافظة على ناحية دينية من نواحى حياة المسلمين العديدة ، ولا يتحلون فى أى مكان فى الدنيا بالصفات والكفاءات التى تؤهلهم لقيادة قطار المسلمين فى هذا الزمان . وإنما وظيفتهم فى كل مكان وظيفة الفرملة Brake فى جهاز القطار ، أو بعبارة أخرى أن وظيفتهم تقتصر على إقامة الحواجز أمام سير القطار الذى تقوده الفئة الأولى حتى تهدأ سرعته . غير أنى أرى بأم عينى أن هذه الحواجز طرأ عليها الضعف بل قد كسرها فى بعض الدول الإسلامية السائقون المتمردون الشرسون وبدءوا يسوقون قطار بلادهم على خط الإلحاد والفسوق والخلاعة والمجون غير عابئين بشىء فى ذلك . فيجب علينا ، قبل أن يستفحل الأمر ويستشرى الفساد ويأتى يوم تتحطم فيه تلك الفرملة التى لا تزال تعمل بعض عملها فى بقية الدول الإسلامية ، أن نعمل الفكر والروية فى وضع منهج للتعليم يخرج علماء يجمعون بين العلوم الدينية والمدنية معا ، ولا يكونون بمنزلة الحواجز ، بل يتبوءون مكان السائق فى قطار حياة المسلمين ، ويتفوقون على المتخرجين تحت منهج التعليم الغربى فى أخلاقهم وصفاتهم فى جانب ، وفى مؤهلاتهم وكفاءاتهم العلمية فى الجانب الآخر .

وهذه حاجة ملموسة لا نرى مؤسسة تربوية تقوم بتحقيقها فى العالم الإسلامى . إن القلق يقض على جميع أهل العلم والرأى مضاجعهم وهم يتفكرون أى معجزة يمكن أن تحفظ على هذه الأمة دينها من الفساد النهائى ، وأخلاقها من الانحلال التام ، لو لم يبرز إلى الوجود نظام للتعليم والتربية يحمل فى طياته المزايا المذكورة آنفا . ومما لا يرتاب فيه أحد أن وضع منهج للتعليم كهذا ، يتطلب من الوسائل ما لا يقدر على تهيئته إلا الحكومات . وأكثر الحكومات الحاضرة فى العالم الإسلامى قد تربع على كراسيها رجال لا يخفى على أحد عقلياتهم واتجاهاتهم .

ولهذا - والحالة كما قلت - لم أجد بدا ، أمام هذه الحاجة الملحة ، من أن أقدم إلى العالم الإسلامى ما أجد فى ذهنى من مشروع لمؤسسة تعليمية منشودة آملا أن يتفكر فيه أهل العلم ، وأن يقيض الله لحكومة من الحكومات المسلمة الحاضرة إخراجه إلى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الوجود أو أن يشرح صدور بعض أهل الثراء والأيادي البيضاء في الدنيا لهذا الغرض وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

وفيما يلي أذكر على وجه الاختصار ما أجد في ذهني من الاقتراحات بخصوص جامعة إسلامية على الطراز الجديد :

١ — إن أول شيء وأهمه بالنسبة لهذه الجامعة ، هو أن تحدد غايتها تحديدا واضحا حتى لا يوضع كل نظامها إلا على حسب هذه الغاية ، ولا يعمل فيها العاملون إلا واضعين هذه الغاية نصب أعينهم ، ولا ينظر إليها عامة المسلمين إلا من ناحيتها ، ولا يعتبرون نجاحها في أداء رسالتها إلا على مدى نجاحها فيها ، وعندي أن جامعة كهذه يجب أن تكون غايتها : « إعداد علماء صالحين يتولون مهمة إرشاد الدنيا وتوجيهها في هذا العصر الجديد وفق أحكام دين الحق ومبادئه » .

٢ — يجب أن تكون دائرة هذه الجامعة محدودة بالعلوم الإسلامية . أما العلوم الأخرى فإنما تدرس فيها باعتبار أنها مساعدة للعلوم الإسلامية الأخرى لا باعتبار أن الجامعة تهدف إلى إعداد الماهرين فيها .

٣ — يجب أن تكون هذه الجامعة سكنية لا تكون سكنى الطلاب ولا سكنى الأساتذة إلا في داخلها .

٤ — ينبغي أن يكون بابها مفتوحا لمسلمي الدنيا جميعا حتى يقصدها الطلاب من جميع نواحي الأرض إذا شاءوا .

٥ — ينبغي أن يكون وسطها وسطا إسلاميا بكل معنى الكلمة حيث يتحلى الطلاب بالتقوى والأخلاق الفاضلة ويغرس فيهم الولوع بالثقافة الإسلامية ، ويجب أن يعمل كذلك على حفظها من تأثيرات الثقافة الغربية ونفوذها حتى لا ينشأ في طلابها تلك العقلية المهزومة التي نرى بوادرها تفشو بكل سرعة في الأمم المغلوبة المفتتنة بحضارة الغرب وثقافته في كل مكان . ومن الواجب — لهذا الغرض — أن يكون استعمال اللباس الغربي غير مسموح به في حدود هذه الجامعة وأن تروج فيها لتربية الطلاب تربية رياضية ركوب الخيل والسباحة والرمي واستعمال الأسلحة والتمرن على سوق السيارة والدراجة النارية وما إليها من الألعاب الرياضية الجديدة الأخرى بدلا من الألعاب الغربية . كما أنه من المستحسن أن يدرب فيها الطلاب على التربية العسكرية إلى جانب هذه الألعاب .

٦ — يجب ألا يكون اختيار الأساتذة للتدريس فيها على أساس الخبرة والكفاءة العلمية فحسب ، بل يجب أن يكون أساتذتها — قبل كل شيء آخر — متحلين بصفات الصلاح والتقوى من حيث عقائدهم ومن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حيث حياتهم العملية معا . كما يجب أن يختار الأساتذة من مختلف أقطار العالم الإسلامى بعد إجراء الفحص الدقيق وإعمال الروية البالغة، ممن لا تتوفر فيهم شروط الكفاءة العلمية فحسب، بل يجب أن يكونوا، قبل كل شيء آخر مسلمين بكل معنى الكلمة من حيث عقائدهم وأفكارهم وميولهم ، متمسكين بأحكام الدين غير مفتتنين بالحضارة الغربية . بل أرى كذلك من اللازم أن نكون على اطمئنان كامل وثقة وافرة بأهل بيئتهم حتى لا يكونوا أحراراً من التمسك بأحكام الشريعة وآدابها ومتعدين لحدودها . وذلك أن الأساتذة إذا كانوا يسكنون فى دائرة الجامعة مع زوجاتهم وهن متبرجات سافرات وترتفع من بيوتهم أصداء الأغنية الخليعة ، فمن المستحيل أن يتربى الطلاب على أيديهم تربية حسنة تتفق وأغراض الإسلام السامية .

٧ — يجب أن يربى فيها الطلاب تربية تحليهم بالصفات الآتية بوجه خاص :

(ا) الاعتزاز بالإسلام وثقافته والعزيمة على إعلاء كلمته فى الدنيا .

(ب) التخلق بالأخلاق الإسلامية والمحافظة على الأحكام والشرائع الإسلامية .

(ج) التفقه والبصيرة الاجتهادية فى الدين.

(د) النزاهة من الطائفية وضيق النظر فى أمور الدين .

(هـ) المؤهلات الكافية للكتابة والخطابة والمناقشة والكفاءات المناسبة للقيام بمهمة تبليغ الدين والدعوة إليه .

(و) التعود على الجهد والمشقة والنشاط وخشونة العيش والاعتماد على النفس فى إنجاز جميع الأعمال .

(ز) الاستعدادات اللازمة للتنظيم والإدارة والقيادة .

٨ - يجب ألا يقبل للالتحاق بها إلا الطلبة الحاصلون على شهادة أقسام الدراسة الثانوية . أما الطلاب من البلاد العربية فيمكن لهم أن يلتحقوا بها رأسا . وأما الطلبة من البلاد غير العربية فإن لم يكن لهم إلمام كاف باللغة العربية ، يجب أن يكون هناك قسم خاص لتعليم اللغة العربية مدة سنة واحدة حتى يتأهلوا للاستفادة من الدروس باللغة العربية قبل التحاقهم بالجامعة .

٩ - يجب أن تكون مدة الدراسة فيها ٩ سنوات بتوزيعها على ثلاث مراحل :

أما المرحلة الأولى فيدرس فيها الطلاب ما يأتى من العلوم (على أن تقسم دراستها على أربع سنوات بطريقة متناسبة وينال الطالب إذا نجح شهادة « البكلاريوس » .) .

(ا) العقائد الإسلامية بالتفصيل الآتى : عقائد الإسلام بموجب الكتاب والسنة والدلائل النقلية والعقلية التى تقوم عليها هذه العقائد ، كما أنه من اللازم أن يدرس الطالب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بهذا الصدد . كيف وبأى ترتيب ظهر ما ظهر بين المسلمين من الخلافات فى العقائد ؟ وكم يوجد فى الدنيا اليوم من المذاهب على أساسها ؟ وينبغى ألا تكون هذه الدراسة للعقائد متجاوزة لحدود البيان العلمى المجرد مع الابتعاد - بقدر الإمكان - عن المحاربة فى العقائد .

(ب) النظام الإسلامى للحياة : يعرف الطالب فى هذه المادة بنظام الإسلام المتكامل للحياة البشرية حتى يكون على معرفة تامة بالتصورات الأساسية التى ينهض عليها بناء الإسلام وكيف أنه يشكل على أساس هذه العقائد الأخلاق والسلوك الإنسانى وما هى المبادئ التى ينظم عليها فى المجتمع مختلف شئون البشر من الحياة العائلية إلى الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وما هى الصورة التى تبرز عليها حضارة الإسلام .

(ج) القرآن : يدرس الطالب فى هذه المرحلة القرآن من أوله إلى آخره مع تفسيره الموجز ، والأفضل عندى لهذا الغرض أن لا يقرر للتدريس فى هذه المادة كتاب خاص فى التفسير ، بل على الأستاذ أن يراجع بنفسه مختلف كتب التفسير ، ثم يلقى دروسه على الطلاب على ضوء استفادته منها بحيث يدرك الطلاب غاية كتاب الله تعالى ومقصوده ويرتفع عن أذهانهم ما يجدون فيها من الشبهات حول تعاليمه وأحكامه .

(د) الحديث : وفى هذه المادة ، بعد أن يعرف الطالب إلى الحد الضرورى بتاريخ علم الحديث وأصول الحديث والبراهين على الاحتجاج بالحديث ، يدرس أحد مجاميع السنن كمنتقى الأخبار أو بلوغ المرام أو مشكاة المصابيح مثلا .

(هـ) الفقه : وفى هذه المادة أيضا بعد أن يدرس الطالب كتابا مختصرا فى تاريخ الفقه يلقن تعليم الفقه بأسلوب يعرفه بمذاهب مختلف الفقهاء فى جانب ، وكيف استنبط الأئمة المجتهدون المسائل من أدلتها الشرعية فى الجانب الآخر

(و) التاريخ الإسلامى : وفى هذه المادة يدرس الطالب أولا تاريخ الأنبياء عليهم السلام ثم يدرس السيرة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ، وسيرة الخلفاء الراشدين بما يمكن من البسط والشرح ثم يدرس التاريخ الإسلامى إلى الزمن الحاضر على الوجه المختصر .

(ز) العلوم العمرانية . (ولا سيما المتعلقة منها بالاقتصاد والاجتماع) ومن الواجب بالنسبة للأساتذة الذين يختارون لتدريس هذه المادة أن يكونوا ممن يستطيعون تدريسها مع نقدها بوجهة نظر الإسلام حتى لا يفرغوا الأفكار والنظريات الغربية فى أذهان الطلاب كما هى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

(ح) الإلمام على الوجه الإجمالى بأديان العالم ولا سيما اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوكية .

(ط) التاريخ الموجز للأفكار والمذاهب الجديدة ولا سيما الديمقراطية الغربية والشيوعية والفاشية وما إليها .

(ى) إحدى اللغات الثلاث الآتية : الانكليزية والألمانية والفرنسية .

(ك) اللغة العربية وآدابها .

أما المرحلة الثانية فتكون الدراسة فيها لثلاث سنوات منقسمة على خمسة أقسام : التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والتاريخ : بحيث يكون لكل طالب إذا نال شهادة إتمام الدراسة فى المرحلة الأولى أن يدخل فى أحد هذه الأقسام الخمسة ، وينال إذا نجح شهادة الماجستير .

(١) أما قسم التفسير فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

(ا) تاريخ القرآن .

(ب) تاريخ علم التفسير ومختلف مذاهب المفسرين مع الإلمام بمزاياها وخصائصها .

(ج) الاختلاف فى وجوه القراءة .

(د) أصول التفسير .

(ه) الدراسة الوافية العميقة للقرآن الحكيم .

(و) الاستعراض الدقيق لما وجه إلى القرآن من الاعتراضات من المعاندين وأجوبتها .

(ز) أحكام القرآن .

(٢) أما قسم الحديث فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

(ا) تاريخ تدوين الحديث .

(ب) علوم الحديث بكل شعبها .

(ج) أحد أمهات الكتب فى الحديث مع النقد التفصيلى لمتونه وأسانيده حتى يتمرن الطالب على نقد الأحاديث على طريق أئمة الحديث .

(د) نظرة شاملة فى الصحاح .

(ه) الاستعراض الدقيق لما وجه إلى الحديث من الاعتراضات من المعاندين وأجوبتها .

٣ ـ أما قسم الفقه فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

(ا) أصول الفقه .

(ب) تاريخ الفقه .

(ج) فلسفة القانون الجديد .

(د) المقارنة بين القوانين الرومية والفارسية والشريعة اليهودية والقوانين الوضعية الجديدة والشريعة الإسلامية .

(ه) المذاهب المختلفة لفقهاء الإسلام وقواعدها .

(و) التمرن على استنباط المسائل من القرآن والسنة مباشرة .

(ز) الفقه على المذاهب الأربعة وعلى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مذاهب الظاهرية والزيدية والاثنا عشرية .

٤ ـ أما قسم علم الكلام فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

(ا) مبادئ المنطق .

(ب) الفلسفة القديمة والجديدة .

(ج) تاريخ علم الكلام عند المسلمين وتفصيل المذاهب الكلامية الناشئة بينهم للعوامل الخارجية والداخلية .

(د) مسائل علم الكلام وما للقرآن والسنة من الهدى فى بابها .

(هـ) الاستعراض الدقيق لما وجه إلى الإسلام من الاعتراضات من المعاندين وأجوبتها .

(و) المقارنة بين الأديان ولاسيما الدراسة التفصيلية لتاريخ المسيحية وفرقها وعقائدها .

(ز) جهود المبشرين المسيحيين وطرائق عملهم .

٥ ـ أما قسم تاريخ الإسلام فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

(ا) فلسفة التاريخ وغاية دراسته وأسلوب دراسته بموجب القرآن .

(ب) المذاهب المختلفة فى فلسفة التاريخ منذ ابن خلدون إلى العصر الحاضر .

(ج) تاريخ الجزيرة العربية والشرق الأوسط قبل الإسلام .

(د) تاريخ الإسلام منذ العهد النبوى إلى العصر الحاضر من جهة تطور الأفكار والأخلاق والعلوم المدنية والسياسة .

(هـ) الحركات لتجديد الدين وإحياء دعوته فى مختلف العصور .

(و) تاريخ الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين وآثاره فيها .

أما المرحلة الثالثة فيكون فيها لكل طالب ـ إذا نال شهادة إتمام دراسته فى المرحلة الثانية ، وأراد التدرب على البحث والتحقيق على الطريق العلمى ـ أن يختار أى موضوع من الأقسام الخمسة المذكورة ، ويدرسه دراسة عميقة تحت إشراف الأساتذة ، ثم يقدم فيه أطروحته بعد سنتين ، فعندئذ يمنح الشهادة بعد ما ينظر فى أطروحته أصحاب العلم . وتكون هذه الشهادة شهادة الدكتوراه .

١٠ ـ يجب أن تزود هذه الجامعة بمكتبة من النوع الأعلى زاخرة بمجموعة علمية من كتب الدراسة والمراجعة على قدر حاجات الجامعة المذكورة .

١١ ـ ويجب كذلك أن تؤلف لجنة من أصحاب العلم لاختيار الكتب المناسبة لمختلف مراحل الدراسة فى الجامعة ولمختلف شعبها الأخرى .

١٢ ـ ويجب كذلك أن يؤسس مجمع علمى (أكاديمى) لتأليف الكتب الجديدة على قدر حاجات الجامعة خاصة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أبو الأعلى المودودى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

صفحات من تاريخ المرأة في الإسلام

للأستاذ محمد محمد المدني

إن في التاريخ لصفحات مشرقة متلألئة بما سطر فيها من فخر للمرأة المسلمة، في ميادين العلم والرأي والأدب والتوجيه والتربية

إن التاريخ لا ينسى مثلا موقف الزوجة الأولى في الإسلام خديجة بنت خويلد حين جاء إليها زوجها محمد صلوات الله عليه يرجف فؤاده وقد رأى الملك ليلة الرسالة وهو يوحى إليه في غار حراء قوله تعالى: «إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

إنه ذهب بها إلى خديجة يرجف فؤاده، وأخبرها خبر الملك الذي نزل عليه بها، وقال لها: مالي يا خديجة مالي، لقد خشيت على نفسي! فقالت له خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فهذه سيدة من كرائم السيدات، خبيرة مجربة، عرفت أخبار محمد صلى الله عليه وسلم في حله وترحاله، واختبرت أخلاقه في عسره ويسره، ودرست نفسه فانتهت إلى وصفه بهذه الصفات العالية التي يرجع أغلبها إلى خلق التضحية والإيثار والتخلص من الأنانية وشح النفس.

عرفت فيه هذه الأخلاق، فبشرته بالنجاح وأن الله تعالى لن يخزيه ولن يتركه، وبذلك ثبتت فؤاده، ووقفت وراءه في أحرج أوقاته، وآمنت به، وآزرته طول حياتها بمالها ورأيها وعطفها وحنانها، مما جعله يقول لزوجته عائشة حين ذكرتها (آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس).

وهذه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تملأ حياة الرسول أنساً وبهجة، وتملأ حياة المسلمين علما ورواية، وتشارك في الأحداث برأيها وجهادها، وتضرب المثل الأعلى لنساء الدنيا فيما يمكن أن تقوم به المرأة في مجتمعها حين تفقه الدين، وتعلم العلم، وتعرف حقوق الزوج والأهل والوطن والمجتمع.

ولا عجب فهى بنت أبى بكر ، وخريجة البيت النبوى فيه اكتمل نموها ، ونضجت شخصيتها ، وتلقت دراستها ، وانتفعت بما يتلى فيه من آيات الله والحكمة ، وعاصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبة منه قرب الزوجة الحبيبة إلى قلبه ، الأثيرة عنده ، فعرفت أهداف الإسلام ، وعاشت فى أحداثه ، وظل ذلك طابع حياتها حتى لقيت ربها كأطهر ما يكون النساء ، وأكملهن عقلا ، وأسبغهن فضلا .

وهذه أختها أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين التى قامت فى شبابها بدور الفدائية فى أحلك ساعة من ساعات رسول الله صلى الله عليه وسلم وساعات أبيها رفيقه فى الغار ، إذ كانت تحمل إليهما الطعام والشراب كل مساء ، متسللة تحت جنح الظلام حتى لا تراها عيون المشركين المتربصين بهما ، والهول يومئذ شديد ، والخطر محدق ، وقد علمت قريش بما كانت تفعل ، فأتى إليها نفر منهم بينهم أبو جهل بن هشام ، وسألوها فى غلظة : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ فقالت : والله ما أدرى أين أبى ، وكانت صادقة فى هذا القسم إذ كان هذا السؤال لها من المشركين بعد أن غادر الصاحبان مكانهما فى الغار ، وسارا متجهين إلى المدينة ، ويومئذ لطمها أبو جهل لطمة قاسية على خدها طار من شدتها قرطها .

وكان لها موقف آخر فى كهولتها ، إذ كانت أماً لعبد الله بن الزبير ، فجاء إليها وقد أحاط به أعداؤه ، وعلم أنه مقتول لا محالة ، فاستشارها فيما يفعل ، فقالت له : إن كنت تعلم أنك على الحق فامض فى سبيلك غير هياب ولا وجل ، فقال لها : يا أماه والله ما أهاب الموت ، ولكنى أخشى إذا مت أن يمثلوا بى ، وكان يريد أن يعرف بذلك مدى احتمالها وصبرها على الكارثة ، فقالت له يا بنى إن الشاة لا تتألم بعد الذبح بالسلخ .

وهكذا غطت بالعقل والإيثار والتضحية على عاطفة الأمومة من الشفقة والرحمة والجزع واللهفة ، فكانت خير مثل للمجاهدات الأبيات الواقفات فى جانب الحق مهما كلفهن هذا الوقوف من مشاق وتضحيات ! .

ويذكرنا هذا الموقف بموقف للخنساء الشاعرة المشهورة بقصائدها التى ترثى بها أخاها صخرا ، فتقول فى بعضها :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً
وأذكره بكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى
على موتاهم لقتلت نفسى

هذه المرأة كان لها أربعة بنين ، فلما تجهز جيش المسلمين لفتح فارس فى السنة السادسة عشرة من الهجرة سارت هى وأبناؤها الأربعة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وحضرت وقعة القادسية ، وأوصتهم من أول الليل قائلة لهم : « يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، وقد تعلمون ما أعد الله من الثواب الجزيل للمجاهدين فى حرب الكافرين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، تظفروا بالمغنم والكرامة فى دار المقامة » .

فخرج بنوها قابلين لنصحها فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » .

فأى طراز من الأمهات هذا الطراز ؟

وقد كان النساء فى صدر الإسلام يغشين الحروب ، ويحضرن الغزوات مع الرجال ، وكان لهن أثر عظيم فى إثارة الحماسة فى النفوس وبعث المحاربين على الإقدام .

وقد احتفظ التاريخ بأخبار الكثيرات منهن : كالزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية التى كانت تركب الجمل الأحمر وتقف بين الصفين فى موقعة صفين التى كانت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وتقول فى مناصرة أمير المؤمنين على :

أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فوجدها ، فصبرا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، وأقبلوا على الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين .

وقد أقدمها معاوية بعد أن ولى الخلافة ، وقال لها يعاتبها ويلومها : يا زرقاء لقد شركت عليا فى كل دم سفكه . قالت له : أحسن الله بشارتك ! فمثلك من بشر بخير وسر جليسه ! قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم ، فضحك معاوية وقال : لوفاؤكم له بعد موته أعجب عندى من حبكم له فى حياته !

وهكذا لم تنفصل من حبها لعلى ونضالها عنه ، فدلت على ما تتحلى به من الشجاعة والوفاء .

ودخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية بعد أن تولى الخلافة — وكانت من ألد أعدائه يوم كان على حيا — فقالت له : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : الآن صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت نعم ، إذ لا على حى ! قال : ألست المتقلدة حمائل السيف وأنت واقفة بين الصفين بصفين تحرضين المحاربين على ، والله لقد كدت يومئذ لتفلين أهل الشام لولا قدر الله ، فما الذى حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ، وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يحب إعادته ! قال : صدقت وسكت عنها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ووفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك يابن عمارة
يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه
واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبي محمد
علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه
قدما بأبيض صارم وسنان

قالت : يا أمير المؤمنين . مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي . قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي . قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كان كما قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته . قال : قد فعلت فقولي حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين أنت للناس سيد ولأمورهم مقلد . والله سائلك عما افترض عليك من حقنا . ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط بسلطانك فيحصدنا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيسة ويسألنا الجليلة . هذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما لو عزلته فشكرناك وإما لا فعرفناك . فقال معاوية : أإياي تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنه
قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا
فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله . قال : ما أرى عليك منه أثرا . قالت : بلى ، أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين . فوجدته قائما يصلي فانفتل عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . « قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان » (١) « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ » (٢) إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك والسلام . فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام . فقال معاوية : اكتبوا إليها بالإنصاف لها والعدل عليها . فقالت : إلى خاصة أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى . قال هيهات ، لمثلكم ابن أبى طالب الجرأة ، وغركم قوله

فلو كنت بوابا على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة
ومثل همدان سنى فتحة الباب
كالهندوانى لم تفلل مضاربه
وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها .

* * *

ألا إن هذه المرأة ومثالها لجديرات بقول المتنبى :

ولو كان النساء كمثل هذى
لفضلت النساء على الرجال

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

---

[١] ٨٥ ـ الاعراف .
[٢] ٨٥ ـ ٨٦ هود

قال ابن الأعرابى :

قال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا . فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب فقال له صحار : أجل والله ، إنا لنعلم أن الريح لتلقحه ، وإن البرد ليعقده ، وإن القمر ليصبغه ، وإن الحر لينضجه ! .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

خيانة العهود من خصال الكافرين

للأستاذ محمد عبد اللطيف السبكي

(ا) «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين» . .
(ب) «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين، ورسوله» .

(١) التعاهد على السلام، والمنافع، وتوثيق الإخاء الإنساني من أسباب الإصلاح للفرد، وللجماعة .

ولذلك ينظر الإسلام إلى احترام العهد، والوفاء به نظرته إلى غاية من غاياته المرموقة، وركن من أركان البناء الاجتماعي في الأسرة، وفي المحيط العام، ضاق أو اتسع؛ ولهذا أذن الله في عقد المعاهدات الهادفة إلى الخير حتى مع المشركين .

ونادى القرآن كثيرا بالوفاء بالعهود، وبالعقود — وهي جانب من العهود — وحذر من الغدر بها، أو التحيف منها، حتى اعتبر هذا التحيف خروجا عن الإيمان فيما يقتضيه، واعتبر عهد الأمان من مسلم لكافر لازما لجميع المسلمين حتى يبلغ الكافر مأمنه، أو ينتهي زمن عهده ومما قاله النبي في ذلك «إن ديننا لا يصلح فيه الغدر» .

وجعل من أمارات النفاق في المنافق «أنه إذا عاهد غدر» .

وقد وصف الله — تعالى — نفسه بالوفاء بالعهد في تمدح واعتزاز «ومن أوفى بعهده من الله»، ولا يظل في استيعاب ما ذكر القرآن، أو السنة في شأن العهود، والموفين بها، والناقضين لها، وما أعد من الجزاء لكل من الفريقين حسبما استوجب لنفسه، وحسبما يقتضي عدل الله .

(٢) ونحن أمام آيات — في صدر الموضوع — تعتبر مطلعا رهيبا لسورة من سور القرآن . وقد بلغ مطلعها من الرهبة أن الله أنزلها دون افتتاحها بالبسملة كغيرها من السور؛ لأن البسملة فيها وصف الله بالرحمة، وذكر الرحمة يوحي بالتفاؤل، والاطمئنان .

وهذه سورة نزلت في مقام الترهيب، وإعلان التعهد من جانب الله، وإظهار غضبه ومقته على المشركين، الناقضين للعهد مع المسلمين . فكان المناسب في سياقها أن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تبدأ بالبراءة من أولئك . ومن عهدهم . وأن تكون بهذه البراءة من جانب الله ورسوله صادعة لأسماعهم، ومثيرة لخوفهم، أو على الأقل مزعجة لأمنهم ، ومبددة لاطمئنانهم وكان من أثر هذا التفريع المقصود أن الصحابة تأسوا بالقرآن ، فلم يقرءوا البسملة فيها مع جواز ذلك تبركا بالتسمية ، كما نقل الألوسى الاتفاق على جواز التسمية عند كل قراءة ، ولو كانت من أواسط الآيات ، كما تكون فى أوائل السور .

ونظراً لما اشتملت عليه سورة براءة هذه من فنون القول ، سميت عند الصحابة بكثير من الأسماء المناسبة لموضوعاتها .

فهى براءة ، كما بدئت به من نبذ عهد المشركين ، وتحقيرهم بإهدار دمائهم ، وأموالهم ، بعد أن كانوا آمنين فى ظلال عهد وثيق أذن الله فيه لرسوله وللمؤمنين واحترموه ، ونقضه غيرهم .

وهى سورة التوبة ؛ لأن الله أشاد فيها بتوبته على المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع الرسول فى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة ، ثم اضطرب الكثير منهم لهول الموقف ، ولما تخوفوه على الرسول وعلى أنفسهم ، حتى غمرهم الله بفضله ، وأبدلهم من عسرهم يسرا ، كما تاب الله على الثلاثة المسلمين الذين تريثوا فى الخروج مع الرسول حتى فاتتهم فرصة الجهاد الآن ، فندموا على تقصيرهم وتخلفهم عن المسارعة ، ولكن الله عفا عنهم ، وقبل توبتهم ، وتعلموا من هذا وتعلم غيرهم ألا يعودوا إلى مثل هذا التباطؤ كما هو ديدن غيرهم من المنافقين .

وهى السورة الفاضحة ، لكشفها عن محاولات المنافقين والكافرين ، ونقض العهد الذى كان مثار غضب الله ، وسخطه على الناقضين ، وهكذا من تسميات كثيرة ، ولكل منها مناسبة فى سياق السورة .

٣ - وفى السورة عجب ، وعبر ، وفيها بيان لجانب كبير من سياسة الإسلام والمسلمين مع سواهم فى السلم وفى الحروب .

وموضوعها أن قريشاً كانت على عهد مع الرسول والمؤمنين منذ السنة السادسة للهجرة ، وهو عهد الحديبية على المسالمة وعدم تجاوز ما تعاهدوا عليه لعشر سنوات قابلة .

وما لبثت قريش أن غدرت بعهدها قبل تمام السنتين ، إذ ناصرت حلفاءها من بنى بكر على خزاعة حلفاء الرسول ، وكان العهد يمنع من مناصرة حليف على حليف ، ومع أن عهد الحديبية كان رحيما بالكفار ، وملائماً لرغباتهم ، ومثيراً لاعتراض عمر وغيره على سماحة العهد ، وهوادة الرسول فى قبول ما رغب الكفار من بنوده ، ومع امتداد الأمان فيه إلى زمن غير قصير ، فقد تعجلت قريش بغدرها ، وسعت إلى شؤمها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بنفسها ، وكانت كالحمقاء التى تنقض غزلها بيدها من بعد نسجه ، وإحكامه فى قوة .

مع أن الرسول لم يكن متسامحاً فى عهده عن ذلة وهوان ، ولا من خوف مما يكون ، ولا لأى محذور يخطر بالبال كما خشى عمر ومن معه أن يدور شىء من ذلك بخلد الكفار.

وإنما هى مسالمة يجنح إليها الرسول ، وهوادة فى السياسة يأخذ بها الإسلام أهله حين لا يوجد ما يمنع من الهوادة ، وهو جنوح إلى الاستقرار ، والتماس للهداية من أقرب طرقها ، دون مشاقة ، أو نفور من التفاهم ، أو هو من مظاهر الحكمة التى تعتبر أجدى وسيلة فى الدعوة .

لهذه الاعتبارات كان العهد سمحاً ، وكانت حكمة الله التى يطمئن إليها رسوله قاضية بذلك حتى لم يكف عمر عن امتعاضه إلا بتوجيه النبى له إلى أن هذا شأن من شئون الرسالة .

وحينئذ يهدأ عمر ومن كانوا على رأيه .

بل يعود عمر على نفسه باللائمة ؛ لأنه ناقش الرسول ، واضطره أن يحتج لسياسته بأنه رسول يبلغ ، وينفذ ما يوحى إليه من ربه .

وعندما يكون اللين والمرونة وسيلة غير مجدية مع الجاحدين لم تبق إلا الشدة علاجا ، ولم يعد من الحزم أن يوضع الحلم موضع السيف مع من لا يقدرون الحلم ، وهنا نزلت الآيات بما فيها من قوارع للسمع .

٤ - نزلت بالبراءة من العهد ونزلت بإمهال الكافرين أربعة أشهر ، يتمتعون فيها بالأمان السابق ، ويسيحون فى الأرض كما يشاءون ، ولأى غرض يحبون . وهذه رحابة الإسلام تعطيهم الفرصة حتى لا يتعللوا بأن الإسلام ضيق عليهم ، أو غدر بهم ، وحتى يرجعوا إلى أنفسهم ، فيما صنعوا ، وفيما يصنعون اليوم وقبل أن يحين الأجل المضروب.

ويعطيهم الفرصة أربعة أشهر ، وهى ثلث السنة ، والثلث فى اعتبارهم كثير ، ومايطمع طامع فى أكثر من الثلث ، كما يطمع المرء فى عطاء من المال ، فيتسع العطاء إلى الثلث وكفى .

والتحديد بأربعة أشهر ، وإفساح المجال أمامهم للسير فى الدنيا : كما هو ترفيه عليهم ففيه إشعار لهم بأن أخذهم بعد ذلك سيكون وبيلا ، وأن يستطيعوا مهما حاولوا أن يفلتوا من بأس الله !! وما لهم بعد ذلك من معذرة !!

وفى التحديد كذلك إيحاء للمؤمنين أن يستعدوا للقاء عدوهم عند أجله المضروب ، وليستأنسوا من الآن بأن العاقبة لهم على خصومهم ، وأن الله مخزى الكافرين ولا محالة .

٥ - ونزلت الآيات كذلك بأن تعلن هذه البراءة يوم الحج الأكبر فى مكة ، وهذا مقام انبثقت فيه الدعوة الإسلامية ، والحجيج هنالك من كل فج ، فلتكن البراءة علانية كما هو شأن الإسلام فى صراحته وعلانيته ...

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفى هذا المسلك شموخ لرءوس المسلمين ، وتصاعد لراية الإسلام ، بعد الذى سلف من غلبة المشركين عليهم ، وطردهم للرسول وأصحابه من هذا البلد الأمين ، فليشهد البلد الأمين مذلة كبرائه اليوم .

وماذا يكون الشأن فى قوم يركبون رءوسهم، ويهملون عقولهم، والحق بين واضح أمامهم ، ولكن الباطل محبب إليهم ؟ ؟

إن الأمر أمر بناء للمجتمع الإسلامى على أنقاض الباطل ، وغرس لشجرة الهدى فى أرض الضلال .

وأمر انتصار لدين الله على مغالبيه الذين يريدون أن يطفئوا نوره، والله يريد أن يتم هذا النور على أوسع مدى، وأرحب أفق ! !

هم لن يعجزوا الله، وهم الذين يهزأ الله بهم ، ويبشرهم بعذابه الأليم ، وكذا الأمر أمر مقاصة ، وجزاء سيئة بسيئة ، والشر بالشر والبادى أظلم لنفسه

على أن المعاملة بالمثل ـ وهى سنة فطرية ـ لا تجعل الجزاء سوءاً ، كما كان البدء سوءاً فإن العدوان شىء ، والقصاص شىء يضاهيه، ولكن وضع القصاص معتبر عقلا فى موازين العدالة ، بعد أن كان العدوان فى كفة الشيطان ولن يستوى فى العقل هذا بذاك ! !

فإذا ثبت الجرم فقد حل الجزاء .

٦ ـ ولكن الإسلام لا يتهافت على الشدة ولا يتجاوز الرفق إلا عندما يأبى الإنسان أن يترفق بنفسه . .

وأنت ترى من مظاهر ذلك قوله تعالى فى سياق هذا القصص المرعب لأولئك الناكثين . « فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله . . »

وترى القرآن يستثنى من هذا الوعيد كله أولئك الكفار الذين لم ينقضوا عهدهم مع المسلمين ، فيأمر الله رسوله وأمته أن تحفظ عهدهم إلى نهاية زمنه .

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

ومن ملامح الآيات وأساليبها يتبين أن العداء القائم فى هذه القصة ليس عداء قائماً لمجرد بقائهم على الكفر وعقيدة الشرك . فإن الكفر عالق بالناقضين ، وغير الناقضين من هذا الفريق .

وإنما هو عداء فى شأن ينشده الإسلام فى أهله ، وغير أهله ، هو خلق الوفاء بالعهد ، فقد التزمه قوم يدينون به ، ويقتضيه إسلامهم وأهدره قومه بسبب حقدهم ، وضلالهم .

ولو التزموه لكان كفرهم مسكوتا عنه إلى نهاية العهد ، وإلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ، كما سكت عن غير الناقضين .

ولكن القوم نكثوا ، فدارت عليهم دائرة بغيهم بالخسران ، وفاتهم أضعاف ما كانوا يتعجلونه من آمال ، وصاروا حديثا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تتندر به الدنيا ، ويرويه التاريخ إلى نهاية التاريخ .

٧ — وانظر إلى دورة الأحداث بهم فى فترة متلاحقة طواهم الزمن فى أعقابها ، وصدق فيهم وعيد الله :

١ — عقدوا عهدهم مع الرسول وصحبه عند الحديبية ـ قريبا من مكة ـ سنة ست من الهجرة ، ثم تحلل الرسول ومن معه من عمرتهم ، وعادوا فقضوها سنة سبع ، والعهد قائم لم ينقض .

٢ — نقضت قريش عهدها سنة ثمان ، فخرج إليهم النبى على جيشه فى رمضان ، وفتح مكة ، وطهرها من الأصنام ، وأعاد إليها حرمتها التى كانت لها قبل أن يطغى عليها طغيان الوثنية ، وعادوا إلى المدينة .

وهذا الحادث الذى سلب المشركين بأسهم ، ودحرهم فى مذلتهم هو أول نتيجة مباشرة لنقض العهد .

وهو الحادث الذى بشر الله به رسوله عقب توثيق عهد الحديبية ، وقبل حصول الفتح « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » إلخ الآيات من سورة الفتح ، وقد حققها الله تعالى . . وبقى الحج سنة ثمان على ما كان معهودا ، فى عهدة قريش ، ولكنه بقاء موقوت وإلى أيام .

٣ — بعد ذلك نزلت آيات فى سنة تسع من الهجرة تتعلق بالعهد ونقضه ، وبقية آثاره .

وفى هذه السنة اختار النبى أبا بكر أميرا على الحج ، ولم يخرج هو صلى الله عليه وسلم حتى تنفذ تلك الأحكام الجديدة التى نزلت بها الآيات .. ثم بعث علياً بعد قيام الصديق ليعلن هناك فى الناس آيات الله وأحكامه « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » . . . (الناقضين) . . « وآذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ، ورسوله ... إلا الذين عاهدتم من المشركين . ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » إلخ .

قام على رضى الله عنه برسالته ، وأعلن فى الناس أمورا أربعة ـ براءة الله ورسوله من عهد الناقضين للعهد ـ لا يحجن بعد هذا العام مشرك ـ لا يطوفن بالبيت عريان ـ لا يدخل الجنة إلا من كان مؤمنا ـ وفى السنة العاشرة كانت حجة النبى صلى الله عليه وسلم وهى حجة الوداع ، بعد أن تركزت راية الإسلام فى مكة ، وصار المشركون مطرودين عنها ، وأفلت نجومهم ، حتى انقرضوا ، والشر بالشر والبادى أظلم لنفسه ؟

عبد اللطيف السبكى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مسالك الاسلام الى القارة الإفريقية

للأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الرباط

أخذت شعوب القارة الإفريقية تفيق من سباتها وتعمل على نيل استقلالها، الأمر الذى عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين، بل لقد عده بعضهم أعظم أحداثه على الإطلاق وذلك نتيجة حتمية للوعى القومى الذى انبعث بين شعوب آسيا وإفريقية فى الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر، وكان من أثر انبثاق هذا الوعى أن نال كثير من الدول الإفريقية استقلالها، وفى ١٩ مارس الماضى أبرم اتفاق وقف إطلاق النار بين الجزائر وفرنسا، الأمر الذى يعد بحق من أعظم أحداث هذا العام، كما عملت الدول الإفريقية على إنشاء اتحاد إفريقى يقوم على دعم العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها وتأسيس اتحاد يضم الشعوب الحرة فى هذه القارة.

مؤرخو إفريقيا:

وقد تناول كثير من المؤرخين والكتاب تاريخ القارة الإفريقية، نخص بالذكر منهم على سبيل المثال: عبد الرحمن السعدى التركينى فى كتابه تاريخ السودان، وأبا الحسن الجزنائى فى كتابه زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، وابن أبى زرع فى كتابه الأنيس المطرب فى أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، وعرب فقيه فى كتابه فتوح الحبشة، والشريف الإدريس فى كتابه نزهة المشتاق، وابن بطوطة فى كتابه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، وابن خلدون فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، وابن زيدان فى كتابه إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، وابن عذارى فى كتابه البيان المغرب فى أخبار المغرب، وأبا الحسن الوزان (ليو الإفريقى) فى كتابه وصف إفريقية Description de l'fiique والقلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، وتقى الدين المقريزى فى كتابه المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار المعروف باسم الخطط. ونعيم شقيرى فى كتابه تاريخ الإسلام القديم والحديث.

ومن أهم المصادر الإفرنجية جميعاً كتاب الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير توماس

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أرنولد (Sir Thomas Arnold) الذى تلمذت له بجامعة لندن . وقد ترجم إلى كثير من اللغات الحية ، ووصفه الأستاذ رينولد نيكلسون(Reynold Nicholson)المعروف بقوله : إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية وقد خصص سير توماس أرنولد للقارة الإفريقية بابين ممتعين : فتكلم فى الباب الرابع عن انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية ، ولا سيما مصر والمغرب والحبشة ، وبحث فى الباب الحادى عشر تحول البربر إلى الإسلام ودخول هذا الدين إلى المغرب ، وقيام الممالك الإسلامية فى القارة الإفريقية ، كما تناول فى هذا الباب الكلام على الطرق الصوفية وانتشار الإسلام فى إفريقية الغربية والشرقية.

وقد اهتم الأوربيون والأمريكيون فى العصر الحديث ببحث القارة الإفريقية من جميع نواحيها نخص بالذكر من بين هذه البحوث كتاب (إفريقية اليوم) Africa To-Day الذى قام على نشره جروف هينز (Grovo Heinz) ويشتمل على ستة أبواب أو مقالات دونها طائفة من الكتاب المحدثين . ومن المراجع الهامة كتاب الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية(Unity and Variety in Islamic civiliation) وقد نشره الأستاذ جرونيباوم (Gruneboum) وطبع بمطبعة جامعة شيكاغو. ويشتمل هذا الكتاب على مقالات تعالج الإسلام باعتباره ديناً وحضارة ، وتبحث التراث الثقافى وحالة البلاد الإسلامية ، وعلاقة العرب بالحضارة الإسلامية . ويتضمن هذا الكتاب فصلين كتبا عن شمالى إفريقية ، وعن إفريقية الاستوائية ، وعن تأثير الشريعة الإسلامية ، وكيف تطبق فى إفريقية ، كما تضمن فصلا آخر عن المؤثرات الإسلامية فى شرقى إفريقية وغربيها .

وهناك كثير من المصادر التى كتبت عن أجزاء معينة من القارة الإفريقية ، نخص بالذكر منها كتاب تاريخ نيجيريا (History of Nigeria) تأليف سير آلان بيرنز (Sir Alan Bunrs) الذى شغل منصب الحاكم العام لهذه البلاد سنين عديدة ، وكتاب الإسلام فى السودان .

(Islam in the Sudan) وكتاب الإسلام فى أثيوبيا (Islam in Ethiopia) تأليف سبنسر ترمنجهام (Spencer trimingham) وكتاب المهدية (The Mahdiya) تأليف ثيوبولد (Theobald) وكتاب الإسلام والمسيحية فى الحبشة(Islam and Christianity in Abyssinia) تأليف سيدر كويست (Cederquist)

ومن هذه المصادر الهامة كتاب وصف بلاد المغرب (Description du Maghreb) تأليف جوينبول ودى غويه (Juynboll et De Goeje) وكتاب البربر : دراسة عن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتح العرب لإفريقية (les Berberes, Etude Sur a conquête de l'Afrique par les Arabes)

وكتاب الجمعيات الإسلامية والحركة المرابطية الدينية فى بلاد السنغال والنيجير .

Les confréries musulmanes et le maraboutisme dans les pays du Sénégal et le Niger.

وكتاب الإسلام والمسيحية فى إفريقية تأليف فورجيه (Forget) .

ومن المصادر الهامة كتاب الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى للأستاذ الرئيس علال الفاسى . وقد ترجم إلى اللغة الانجليزية بعنوان :

The independence Movements in Arab North Africa.

ومن هذه المصادر الحديثة كتابا : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى جنوبا وفى شرقى القارة الإفريقية وغربيها ، ويتضمن المحاضرات التى ألقيتها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية الملحق بجامعة الدول العربية . هذا بالإضافة إلى المادة التاريخية المتواضعة التى تناولت بعض أطراف هذا الموضوع فى كتابى تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى بأجزائه الثلاثة ، ولا سيما ما يتعلق منها ببلاد المغرب والنوبة والسودان .

وسأحاول فى هذا المقال أن أبين فى شىء من الإيجاز أهمية القارة الإفريقية لنشر الإسلام والطرق التى سلكها هذا الدين الحنيف إلى إفريقية . وأرجو أن أتناول فى مقال آخر الكلام على أثر انتشار الإسلام عن طريق الفتح وعن طريق الفرق الصوفية ، ثم على أيدى الدعاة والعلماء والتجارة والرحالة ، ثم على العنصرية ومبدأ المساواة وأثر ذلك فى نشر الإسلام بين سكان أواسط هذه القارة . كما أرجو أن أتكلم فى مقال آخر على الممالك الإسلامية التى قامت فى غربى وأواسط وشرقى إفريقية .

إفريقيا من أغنى القارات :

ينتظم الإسلام أكثر من ثلث القارة الإفريقية التى تبلغ مساحتها ١١٢٦٢٠٠٠ من الأميال المربعة ، أى خمس مساحة الكرة الأرضية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من مائتى مليون نسمة ، وهم يكونون ٨ ٪ من سكان الكرة الأرضية . وبين هؤلاء السكان خمسة ملايين من البيض .

وموارد هذه القارة الاقتصادية بالغة الأهمية لتنوع هذه الموارد بتنوع البيئات واختلاف الموقع والمناخ . وهى تنتج نحو ٩٨ ٪ من ماس العالم ، ٥٥ ٪ من ذهبه ، ٢٢ ٪ من نحاسه ، كما تنتج نحو ثلثى محصول الكاكاو العالمى ، وثلاثة أخماس إنتاج زيت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النخيل . هذا عدا معادنها الأخرى كالمنجنيز والكروم ، واليورانيوم ، بالإضافة الى إمكانياتها العظيمة فى القوى المائية . وبالقارة الإفريقية أكثر من ستين مليونا من المسلمين وفق الاحصائيات التى أوردها الأستاذ ماسينيو فى كتابه التقويم السنوى (١) .

وهذه القارة مورد اقتصادى عظيم فى المعادن والزراعة والمواد الخام ، وقد أدركت الدول الغربية هذه الحقائق ، فتسابقت إلى استعمارها للانتفاع بثرواتها الطبيعية ، وأدركت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحقائق فى السنين الأخيرة فاهتمت باقتصاديات إفريقية اهتماما بالغا ، وعملت على الاحتفاظ بأسواقها ، وضاعفت رءوس أموالها المستغلة فيها . أضف إلى ذلك أهمية موقع هذه القارة الاستراتيجى ، كما قرر ذلك الأميرال ريتشارد كونولى فى الفصل الذى عقده لبيان أهمية إفريقية من الوجهة الاستراتيجية . فقد ذكر الأهمية الكبرى للأماكن الآتية (٢) :

١ — طنجة .

٢ — قاعدة مراكش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .

٣ — شمال غربى إفريقية .

٤ — ليبيا .

٥ — أرتيريا ـ الحبشة ـ الصومال ـ موانى مصوع وجيبوتى ومقديشيو .

٦ — جزيرة مدغشقر وأهميتها فى حماية مسالك المحيط الهندى .

٧ — رأس الرجاء الصالح ولاسيما قاعدة سيمونز تاون البحرية .

٨ — قاعدة دكار التى تحرس طرق المواصلات فى غربى إفريقية .

كيف انتشر الإسلام فى إفريقيا :

ويرجع انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية إلى عاملين أساسيين :

الأول : طبيعة الشعوب التى قامت بنشر الإسلام . وكانت فى الغالب شعوبا بدوية رعوية أو شبه رعوية . ولم تكن لها خبرة بركوب البحر أول الأمر . بل كانت تمتطى ظهور الإبل والخيل ، ولا يستطيع أهلها التقدم إلا فى السهول المكشوفة .

الثانى : طبيعة الأرض التى انتشر فيها الإسلام وتسربت إليها جموع البدو . وكانت هذه البلاد الإسلامية تحيط بالصحراء الكبرى شمالا فى المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وجنوبا عبر وادى النيل حتى حدود النوبة . وفى

---

(1) (Annuaire musulmane, pp. 228 395)

(2) Richard Conolly, Africa To-Day, Africa's Strategic Significance, p. 55.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النطاق الرعوى الذى يحيط بهذه الصحراء من الجنوب من مصب نهر السنغال حتى السودان .

على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى ، وهى شلالات النيل ، وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال وغابات .

الطرق التى سلكها الإسلام :

ويلاحظ أن الإسلام قد نفذ إلى غربى القارة الإفريقية عن طريقين هما :

الأول : الطريق الساحلى عبر حوض السنغال ، وهو الطريق الذى سلكه المرابطون .

الثانى : طريق التجارة الذى يبدأ من مدن إفريقية الشمالية متجها صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى فى السودان .

وأهم المراكز التجارية فى غربى إفريقية بلاد غانه ، ومالى ، وجنى ، وتمبكتو (أو تمبكت) ، وكانو . ومن أهم مراكز التجارة فى شمالى إفريقية فى العصور الوسطى : القيروان ، وتونس وطرابلس .

وكانت هذه التجارة تسلك ثلاثة طرق رئيسية هى :

١ — الطريق من مراكش إلى منحنى نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوبا .

٢ — الطريق من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة شاد .

٣ — الطريق من طرابلس إلى المنطقة المحيطة ببحيرة شاد كذلك .

وقد انتشر الإسلام فى ربوع القارة الإفريقية فيما بعد فاخترق نطاق الغابات فى غربى هذه القارة ، وانتشر على طول الساحل الشرقى ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكونغو . ومن الشرق نفذ إلى جنوبى السودان وهضبة البحيرات ، وقلب الهضبة الحبشية ، وتخطى الساحل الشرقى فى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا . كما نفذ إلى جنوبى إفريقية مع المهاجرين من سكان شبه القارة الهندية ، وما زال ينتشر إلى اليوم .

وهناك نهضة مباركة فى نشر الدين الحنيف انبثت بين مسلمى القارة الإفريقية فى جميع النواحى . فقد نفضوا عن أنفسهم تراب الماضى وشاركوا فى الحركات التحررية ، وتسنموا أعلى المناصب ، وقاموا بدور ملحوظ فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية ، وحرصوا عليها جد الحرص وتجاوبوا مع إخوانهم فى الدين فى كافة أرجاء العالم الإسلامى ، ولنأخذ فى الكلام عن تلك المسالك الهامة فى شىء من التفصيل فنقول :

إن الإسلام قد نفذ إلى القارة الإفريقية عن ثلاث طرق رئيسية هى :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الطريق الأول : طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين والأحساء إلى الساحل الإفريقي الشرقي ومصوع وبربرة ، حيث أخذت هجرات المسلمين تتدفق على طول هذا الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج . على أن أول هجرة للعرب ترجع إلى زمن أبعد من هذا ، إذ يرجح بعض الباحثين أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية امتد في العصور القديمة حتى سوفالا جنوبي نهر زمبيزي . وقد بنى المسلمون مدينة مقدشيو على ساحل المحيط الهندي ببلاد الصومال ، وذهب جماعة منهم إلى زنزبار ، حيث نشروا الإسلام بين أهلها الذين يطلق عليهم اسم «السواحلية» ، كما أسسوا مدينة كلوا ببلاد تنجانيقا الآن ، وفي الساحل الشرقي من مدينة مدغشقر ، بل لقد نفذوا إلى كينيا فأوغندة وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية ، أي إلى مستعمرة الرأس ، حيث نجد مسلمي هذه البلاد من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون في القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، كما يذكر سير توماس أرنولد[1] .

ولم تكن جهود العرب مقصورة على الساحل الشرقي أول الأمر ، بل لقد نفذوا إلى داخل القارة الإفريقية ، حيث شق الإسلام طريقه إلى بلاد الحبشة والصومال على أيدي الدعاة والتجار كما نفذا إسلام إلى أوغنده في القرن التاسع عشر ، وإلى نياسلاند في القرن العشرين .

والطريق الثاني الذي سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية هو طريق النوبة ودنقلة ، وذلك بعد الفتح الإسلامي لمصر ، ولم تكن السودان بلاداً مجهولة للعرب ، فقد كان نهر النيل الطريق التجاري لهم ، على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية حائلا دون هؤلاء الفاتحين والمهاجرين ، ولم يكن كل العرب المهاجرين تجارا ، بل كان فيهم المتنقل سعيا وراء المراعي الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا في فجاج السودان المترامية ما ينشدونه ، وتخلصوا من دفع الخراج ، كما وجدوا في تجارة الرقيق والذهب والجواهر ضالتهم المنشودة وساعدهم على ذلك أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم .

العرب ونشر الإسلام في إفريقيا :

ولما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه إلى فارس والشام وفتح العرب مصر في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، انتشر الإسلام في القارة الإفريقية حتى بلغ مدينة أسوان جنوبا .

ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة المسلمين إلى ما لاقوه من ترحيب المسيحيين وعلى الأخص من القبط ، وهم

---

(١) ترجمة حسن إبراهيم حسن ص ٢٨٨ — ٢٩٤

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أهل مصر الأصليون الذين كرهوا الحكم البيزنطى بسبب فداحة الضرائب واستبداد الكنيسة البيزنطية بهم .

وفى عهد عمر بن الخطاب حاول العرب فتح بلاد النوبة ، فقد حاول عقبة بن نافع فتحها على غير جدوى ، فهادن أهلها وعقد معهم صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية ، على أن تمدهم مصر بالحبوب والعدس ، وتمد النوبة مصر لقاء هذا بالرقيق لملاحة الأرض. ثم حاول المسلمون فتح بلاد السودان ونشر الإسلام فيه ، وإن كان هذا قد كلفهم ثمناً غالياً ، ومع ذلك فقد عرف المسلمون أرض النوبة واختلفوا إليها لأغراض تجارية خالصة. كما عرفوا أرض البجة (أو البجاة) الذين كانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر وينتشرون بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً .

وقد اتصل العرب بالبجاة فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بطريق البحر الأحمر وبطريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان . فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . كما استقرت جماعة منهم هنالك ، وبنوا المساجد والدور . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على دخول هؤلاء البجاة فى الإسلام وتعريبهم وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان قد تسرب إلى أهالى مدن النوبة السفلى . وكان لزواج العرب بالنوبيات أثر كبير فى إسلام النوبيين .

دور المغرب فى نشر الإسلام بإفريقيا

والطريق الثالث الذى سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية هو إفريقية الشمالية والغربية . ذلك أن العرب بعد أن تم لهم فتح مصر ، مدوا فتوحهم إلى بلاد المغرب . وقد هيأ تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية (وهى القطر التونسى الآن) على يد عقبة ابن نافع سنة ٥٠ هـ للعرب مركزاً حصينا اتخذوه قاعدة لنشر الإسلام فى شمالى القارة الإفريقية وغربيها .

ومن أهم طبقات المجتمع الإسلامى فى شمالى إفريقية شعوب البربر ، وهم أهل البلاد الأصليون . وكان وقوع المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط تجاه أوربا سببا فى تبادل سكانه حضارة الأمم المجاورة إلى جانب حضارتهم وتقاليدهم العريقة التى يرجع تاريخها إلى أيام الفينيقيين الذين عرفوا المغرب قبل ميلاد المسيح بنحو ألف سنة .

وكان نجاح عقبة بن نافع فى نشر الإسلام بين البربر بطيئا ، لانشغاله بحروب الروم الذين أنزل بهم الهزائم المتتالية وكان ذلك سببا أصيلا فى أن دبروا له مكيدة مقتله فى موقعة تهودا التى لعب فيها كسيلة دورا قيل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بسبب استيائه لمعاملة عقبة بن نافع السيئة له ولصديقه ابن أبي المهاجر . وقيل - وهو الأرجح - إن الروم قد دفعوه إلى الإيقاع بالقائد العربي . ودليل ذلك أن تهودا كان بجانبها حصن رومي كبير .

ثم خلف عقبة زهير بن قيس البلوي الذي استطاع أن يقتص لمقتل سلفه فقتل كسيلة وحطم مقاومة الروم ، ولكن الروم دبروا له مكيدة شبيهة بتلك التي دبروها لعقبة حيث اشتبك مع الأسطول الرومي على ساحل طرابلس وكانت نهايته أن استشهد في تلك المعركة . وكذلك لم يتمكن زهير بدوره من نشر الإسلام ، ثم خلف زهيرا حسان بن النعمان ، وكان حريصا على نشر الدين ، فكسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهم وانبعث فيهم الأمل في استرداد بلاد المغرب من أيدي المسلمين ، فقاتلهم حسان قتالا مريرا وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة داهيا وقومها جراوة [1] . ولكن الكاهنة هزمت حسانا الذي أنهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب إلى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، عاد بعدها إلى المغرب وهزم الكاهنة ، وبدأت مواهبه تظهر في نشر الإسلام وفي تدوين الدواوين باللغة العربية . وقد ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تفتح على يده صفحة جديدة في تاريخ المغرب الإسلامي . ولكن القدر عانده ، فخلع من منصبه وخلفه موسى بن نصير الذي أتم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ مساهما في ذلك مع مولاه طارق بن زياد الذي كان ينوب عنه في ولاية المغرب الأقصى ، متخذا طنجة حاضرة لولايته .

وكان فتح بلاد الأندلس فتحا للإسلام في المغرب والأندلس معا ، ذلك أن معظم الجيش الذي فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد ، وقد شعر المغاربة لأول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الإسلامية تدخل في دورها الفعال ، إذ شعر البربر بعد فتحهم الأندلس ، أنهم أضحوا حماة الإسلام في هذه البلاد ، وأن عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين .

وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، وأظهر بعض ولاة المسلمين ، ولا سيما الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، حماسة في إعلاء شأن الإسلام ، فقد أرسل مع واليه على شمالي إفريقية عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي المغرب.

على أن ثقة البربر بالدولة الأموية بالمشرق قد تزعزعت ، بسبب تسرب بعض فرق الخوارج ، كالأباضية والصفرية بينهم ، وقيامهم بنشر الدعاية ضد الحكم الأموي ،

(١) السلاوي ، الاستقصاء ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ج ١ - ص ٩٢.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) غدا شمالى إفريقية مسرحا للفتن والقلاقل، ويعزى خروج البربر على ولاتهم من العرب إلى بعد هذه البلاد وفرضهم ضرائب ظن البربر أن الدين لم ينص عليها، يضاف إلى ذلك استفحال حركات الخوارج والشيعة، حتى عمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية وانضم بعض زعماء من العرب النازلين فى هذه البلاد إلى البربر، وخلعوا طاعة العباسيين، وتأسست فى المغرب ولايات مغربية مستقلة، منها ولاية تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الأباضية، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التى أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين، وولاية تلمسان التى أسسها بنو فرة الصنهاجيون، ودولة برغواطة فى تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسى.

من ذلك نرى أن أهل الشمال الإفريقى قد قاموا بدور ملحوظ فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية.

وفى سنة ١٧٢ هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولى إدريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ المشهورة سنة ١٦٩ هـ. وقد استقبلته قبيلة أوربة البرنسية ونشرت دعوته. ولقى المولى إدريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد فى تأسيس دولة الأدارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد.

المرابطون ونشر الإسلام:

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدولة المرابطية تعتبر أول دولة وحدت المغرب الأقصى والأوسط وقامت بدور خطير فى نشر الإسلام على الساحل الإفريقى الغربى وبلاد السودان، ويجمع المرابطون فى المغرب بين الجهاد والثقافة الدينية معا، كما يتجلى ما فطروا عليه من نزعة دينية خالصة وحب للجهاد فيما ذكره عبد الواحد المراكشى (١) عن حضور المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية إلى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مستغيثا به فى حربه مع الفونس السادس ملك قشتالة. فأجاب ابن تاشفين المعتمد إلى ما دعاه إليه قائلا: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى»، وعبر ابن تاشفين البحر من سبتة فى أسطول مغربى يتألف من مائة سفينة ميمما شطر الجزيرة الخضراء، وأوقعت جيوش ابن تاشفين بجيوش الفونس فى موقعة الزلاقة المشهورة، التى تعد بحق من المواقع الحاسمة فى التاريخ

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٠-١٣٣.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فقد طال حكم المسلمين للأندلس أربعة قرون أخرى بفضل انتصار يوسف بن تاشفين فى هذه الموقعة ،

ويرجع انتشار الإسلام فى الصحراء وفى حوض السنغال إلى عبد الله بن ياسين ، فقد ذكر ابن أبى زرع (١) أن يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة إحدى بطون صنهاجة استعان بعبد الله بن ياسين الذى عرف بالتقوى والتفقه فى الدين (٢) ولما مات يحيى ابن إبراهيم ، خلفه فى زعامة صنهاجة يحيى بن عمر اللمتونى . وقد ذكر ابن خلدون أن جدالة ولمتونة تنحدران من قبيلة صنهاجة الكبرى (٣)

وقد وجد عبد الله بن ياسين أن البربر فى ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، فأخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم ، وسار مع تلاميذه المخلصين إلى جزيرة بنهر السنغال (١) بنوا بها رباطا اتخذوه مركزا لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه فى دينهم والمحافظة على شعارهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين.

وسرعان ما تجمعت حول عبدالله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت فى الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادئ الإسلام . وقد ذكر ابن أبى زرع (٢) أن عبد الله بن ياسين قال لتلاميذه :

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه خلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم . استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين .

وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوة

---

(١) الأنيس المطرب (الرباط ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ ـ ١٦ .

(٢) راجع ابن خلدون « العبر » طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ ج ٦ ص ١٨٢ » .

(٣) قال ابن خلدون : (العبر ، ج ٦ ص ١٥٢) إلى بطون صنهاجة كثيرة . فمنهم بلكالة وأنجقة ، وسرطة ولمتونة ومسوفة ، وجدالة ») . وقال ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم . وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة . وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أى على الدين) فدانوا لهم واستوثق لهم (أى الملثمين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رياسة كل بيت منهم فى بيت مخصوص » .

(١) ويذكر ابن خلدون (العبر ج٦ ص١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : « وأخذه أبو بكر ، فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحا فى الصيف وغمرا فى الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع فى هذا الخطأ الذى وقع فيه الشريف الإدريسى (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٢) الأنيس المطرب ص ١٤ ـ ١٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التى اتخذها عبد الله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هـذا ما ذكره صاحب القرطاس أما ابن عذارى فإنه يرى رأيا آخر فى هذه التسمية حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم (١) .

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا ، ومعنى المرابطين : الأتقياء المجاهدون فى سبيل الله ، وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها ، وقد ورد لفظ رباط فى القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى المسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال (٢٢ - ٢٩ - ٤٠) :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

وقد قام المرابطون بدور هام فى نشر الإسلام فى القارة الإفريقية ، ومن المعروف أن الأمير أبا بكر بن عمر قلد ابن عمه يوسف ابن تاشفين فى سنة ٤٦٢ هـ حكم بلاد المغرب الأقصى شمالا ، فاستطاع يوسف بفضل مواهبه الفذة أن يؤسس فى سنة ٤٦٦ هـ (١) الدولة المرابطية العظيمة التى خدمت الإسلام فى الأندلس ولم تأل جهدا فى نشره فى كثير من ربوع القارة الإفريقية .

ثم جاء الموحدون فنشر الإمام المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت عقيدة التوحيد بين الناس بعد أن مهد لها طويلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتداء من مكة المكرمة وهو عائد من الشرق ، وانتهاء ببلاد المغرب ، وقد ألف لأتباعه كتبا فى عقيدته التوحيدية التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية .

وكما كان للمرابطين فضل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية فى أجزاء واسعة من القارة الإفريقية والأندلس ، كذلك كان للموحدين أثر محمود فى الجهاد ضد الصليبيين بالأندلس ، كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التى كانت تقوم على التوحيد ، وقد ذكر صاحب الاستبصار أن دعوة التوحيد امتدت من طرابلس شرقا حتى غانة وإلى قلب القارة الإفريقية ، وكان للموحدين الفضل العظيم فى نشر الثقافة عامة والإسلامية منها خاصة .

(البينة — الرباط)

الدكتور حسن إبراهيم حسن

(١) أحمد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ - ١٤٦ .

نظرة فى أحاديث "إحياء علوم الدين" للغزالى

للأستاذ محمد محمد الشرقاوى

قبل أن نتناول الأحاديث النبوية الشريفة التى انطوى عليها كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى - بالنظر والتحليل .. نود أن نقرر بادئ ذى بدء أن ذلك الإمام الجليل قد بلغ القمة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى .. وذلك حين اقتحم بعقله الجبار ، وعزمه الثوار ، آفاق الفلسفة والمنطق ، وعلم الكلام والعقائد ، وأن كتابه « تهافت الفلاسفة » كان معولا تهاوت تحته دعائم الفلسفة العقلية التى شادها الفلاسفة على التفكير العقلى المجرد ، منذ عهد « أرسطو » .. صاحب أضخم عقلية فلسفية انبثق عنها التاريخ - فى رأى الفلاسفة - فقد أبطل الغزالى مذهبهم المادى الذى كان يرصد عالم الغيب من خلال المعقولات ، حتى إذا استعجم عليهم إدراك ما وراء الطبيعة بالعقل ، كفروا بعالم الروح ، وصدوا عنه ، فحاجهم الغزالى بسلاح الجدل المنطقى الذى دانوا به .. حتى حجهم ، وخاصمهم بالدليل البرهانى .. حتى خصمهم ، وكشف لهم حقيقة غابت عنهم ، وهى أن عالم الغيب فوق مدارك العقل المجرد ، لأن تصرفات العقل دائرة فى إطار المحسات ، فهو لا يفكر ولا يتخيل ولا يتوهم إلا ضمن تلك الدائرة المحددة .. على حين أن ما وراء الطبيعة ليس من قبيل ما يخضع لحواسنا ومداركنا القاصرة . وكانت تلك الفكرة هى التى اختمرت أخيرا فى عقلية الفيلسوف الألمانى الشهير « كانت » والذى اعتبره قومه الألمان من أجلها .. نعمة من أجل نعم الله عليهم .. بيد أن « كانت » حين أثبت قصور العقل عن إدراك كل شىء لم يصل بعد ذلك إلى إثبات شىء فى عالم العقيدة والحد ... أما الغزالى فإنه استشرف معالم الغيب عن طريق السلوك فى دروب الصوفية ، والترقى فى سلم الوصول .. حتى أشرق عليه الفيض بالأمل المنشود .

.. ولقد شغف الغزالى - رحمه الله تعالى - الشغف كله بهذا اللون من التفكير ، الدائر فى فلك الإيمان والتكفير ، وصال فيه وجال ، حتى بلغ شأوا عزيز المنال .. فقيل إنه أنظر أهل عصره ، وإنه بحر مغدق .. أو مغرق ، ومن هنا نشأ لقبه المشهور « حجة الإسلام » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

.. كما نود أن نشير إلى أن هذا الإمام العبقرى قد كتب فى علم الخلاف والفقه بطريقة تكاد تكون جديدة فى بابها ، فقد زاوج بين الحقيقة كما يعرفها الصوفية .

والشريعة كما يفهمها الفقهاء ، وربط بين أعمال الظاهر ، وأحكام الباطن ، ولم يسلك مسلك الفقهاء الذين اعتمدوا فى استنباطهم على الأدلة التفصيلية ، فى ضوء قواعد فقهية مقررة ، ومبادئ أصولية مسلمة .. بقدر ما سلك فى ذلك مسلك أهل الطريق من ذوى الكشوف والإلهام .. الذين يرون للمعرفة بابا آخر ، غير باب الأدلة والقواعد .

ونحن لا نتعرض للغزالى من هذه الناحية ، ولا من تلك : إلا بالقدر الذى يحفظ له أثره وخطره فى محيط المدارك الإسلامية العليا .

وهمنا من هذا البحث ، أن نتناول أشهر كتبه « إحياء علوم الدين » الذى شاع ذكره وذاع ، وطبقت سمعته البقاع والأصقاع ... وذلك بالتحليل العلمى لما تضمنه من أحاديث نسبت إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، لننظر ... إلى أى مدى بلغت جهود الإمام فى هذا السبيل ... بالنسبة لما بلغه فى مجال الفلسفة والمنطق والعقائد ، والفقه والأصول

وهدفنا الذى نرنو إليه ... وضع الأمور فى نصابها وإعطاء ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، والحكم بالحق على الأشخاص ، لا الحكم بالأشخاص على الحق ، والتمتع بحقنا المشروع فى الحرية الكاملة لمناقشة الآثار والمخلفات العلمية — مهما كان مصدرها — مع تحرى الأمانة والصدق فى إصدار الحكم لها أو عليها ... وذلك على الرغم مما دبجته أقلام المعجبين بهذا الكتاب الشهير ، من عبارات المدح العريض ، والثناء المستطاب ، فقد جاء فى دائرة المعارف الوجدية فى معرض التنويه بذكره ، « إنه آية من آيات التأليف ، وغاية من الغايات التى تقصر عنها الهمم » ، ومن ذلك قول الإمام النووى فيما نقله عنه ابن السبكى فى طبقاته : « كاد الإحياء يكون قرآنا » ، ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره التاج السبكى فى الطبقات من قول بعض المحققين : « لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر ، والفكر والأثر .. غير إحياء علوم الدين ـ لكفى » .

ونرى أن تلك الأقاويل قد استبد بها الإعجاب ـ إلى درجة المبالغة الفجة ... وذلك نتيجة لسبق الكتاب فيما عالج من موضوعات ، وما تناول من قيم ، وما حلل من مفاهيم ... على نحو لم يعرف من قبل فى تاريخ الكتابة الإسلامية .

ولعل ما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين فى هذا المقام أدنى إلى القصد ، وأدخل فى الصواب حين يقول : « وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل » .

ومركز الاهتمام والخطورة فى هذا البحث أنه زخر بحشود هائلة من الأحاديث النبوية الكريمة ، فيها الصحيح وغيره ... ولو أنها كانت ضمن كتاب لا يؤبه له ، ولا يلتفت إليه ... لوسعنا أن نضرب عنها صفحا ، وأن نغض دونها بصرا ، لكنها فى أشهر موسوعة علمية إسلامية ، اعتبرت فى نظر الطليعة من رواد الهداية موردا فياضا ، ومنهلا عذب الورود ، تتسلسل فى جدوله المترقرق عبارات الوعظ والتأثير الدينى طيعة للذين يتصدون لتلك المهمة فى معترك الحياة ... ثم سرعان ما تشق طريقها إلى العقول والقلوب فى مشارق الأرض ومغاربها لتعمل عملها ... وتؤتى أكلها .

والواقع أن الإمام الغزالى — رحمه الله تعالى — حين ألف كتابه (إحياء علوم الدين) وجمع فيه من الأحاديث ما جمع ، كان كحاطب الليل ، أو كمن يخبط خبط عشواء فقد جمع الصحيح إلى جانب الضعيف ، وسوى بين المسموع والموضوع ، وزاوج بين المنقول والمدخول ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، والحق بالباطل ، وعز على الناس التمييز بين تألق الأصيل ، وبريق الزائف الدخيل ، ولو لم يكن قد عز عليهم هذا التمييز — لكان من غير المرغوب فيه وجود هذا اللون من المؤلفات التى تنتمى إلى الإسلام فى مثل هذا الثوب المهلهل ، ويكفى أن أشير إلى أنى طالعت الخمسمائة حديث الأولى من كتاب (الإحياء) مستعيناً بالإمام الحافظ العراقى — طيب الله ثراه — الذى تعقب كل حديث فى الكتاب مبيناً ما له وما عليه ؛ فلاحظت أن الربع الأول من الكتاب المسمى بربع العبادات ، قد بدئ بحديث ضعيف وانتهى بحديث ضعيف : فأما حديث البدء فهو : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » ، وأما حديث النهاية فهو : « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام ، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » فقد عده ابن حبان فى الضعفاء ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

وفيما بين هذه البداية وتلك النهاية أحصيت ضمن الخمسمائة حديث المشار إليها : ١٩٤ حديثاً صحيحاً ، ١٣٥ حديثاً ضعيفاً ، ١٠٤ حديثا حسناً ، ٢٤ حديثاً لم يعرف أصله ، ٢٢ حديثاً موضوعا ، ١٧ حديثاً مرسلا ، ٤ أحاديث غريبة .

وإذا أنعمت النظر فى النسبة المعقودة بين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هذه الأحاديث وجدت أن نسبة الحديث الصحيح نحو ٣٨٪ وهى هى نفس النسبة للأحاديث الضعيفة والموضوعة والغريبة والمرسلة والتى لا أصل لها معاً ، بينما تتوزع النسب الباقية ما بين الحسن والمنكر والمضطرب والمختلف فى صحته والموقوف إلخ .

ومعنى هذا أن نحو نصف أحاديث هذا الكتاب الشهير ذى الخطر الكبير صحيح والنصف الآخر يفتقد مقومات الصحة . وهذا يفتقر إلى جهود صادقة من المشتغلين بالحديث لحصر الصحيح والحسن فى إطار خاص ، وتنقيتهما من الشوائب ، ليسهل العلم ، ويصح العمل ، مع المحافظة على الأصل التاريخى للكتاب قياماً بواجب الأمانة العلمية

ومحل العجب هنا .. أن الغزالى كان كثيراً مايعيب على المحدثين من أهل عصره إسفافهم فى رواية الحديث ، وإغراقهم فى النقول عن صاحب الرسالة ... ومع ذلك فلا ندرى .. هل كان الغزالى يدرى أنه تورط فيما عابه على غيره ، وقد ذكر الإمام أبو العباس بن تيمية « أن الغزالى عكف فى آخر أيامه على قراءة البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة » ولقد تمنينا على التاريخ .. أن لو كان عكوف الإمام هذا على قراءة الصحيحين نقطة البدء فى حياة الإمام العلمية .. إذن لكان لأحاديث إحياء العلوم شأن غير ما هى عليه الآن .. وأكبر الظن أن الإمام لم تواته ظروفه لكى يراجع ما كتب من أحاديث . إثر عكوفه على مطالعة الصحاح من كتب السنة .

وأنه لو أسعفته تلك الظروف .. لكان له إحياء جديد بعد إحيائه القديم .. كما ظهر ذلك فى فقه الشافعى على اختلاف فى زاوية الوضع والمراجعة ..

جاء فى كتاب (جواب أهل الإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من آن) لابن تيمية : (وأما الطريق الخبرية النبوية فلم يكن للغزالى فيها خبرة بما صح من ألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده ، وظن بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين مراده بألفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلى والسمعى وظن أن المطلوب يحصل بطريق التصفية والعمل ، فسلك ذلك فلم يحصل له المقصود أيضاً ، فرجع فى آخر عمره إلى قراءة البخارى ومسلم) .

ويقول ابن النجار فى ترجمته للإمام الغزالى: (ولم يكن للغزالى أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث ، ولم أر له إلا حديثاً واحداً) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد أخبر أبو عبد الله الحافظ بواحد من أحاديثه — كما جاء فى الطبقات الكبرى — وفى الطبقات لابن السبكى : أن الإمام أبا بكر الطرطوشى تعرض لكتاب (إحياء علوم الدين) فى رسالته لابن مظفر بقوله : — (فلما عمل الإحياء عمد يتكلم فى علوم الأحوال ، ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ، وشحن كتابه بالموضوعات ، ولقد بدا له الانصراف عن طريق العلماء ، ودخل فى غمار العمال ، ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل فى علوم الخواطر ، وأرباب القلوب ، ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ، ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين) .

وقديماً اندلعت نار ثورة عارمة من فقهاء الدولة التاشفينية فى المغرب على عهد على ابن يوسف بن تاشفين — ضد كتاب (الإحياء) وقد عاصرها الإمام الغزالى ودعا على قادتها فقد جمع من نسخ الإحياء الشىء الكثير فى بلاد الأندلس والمغرب ، ووضع ما جمع من الأندلسيين فى صحن جامع قرطبة ، وما جمع من بلاد مراكش فى صحن مسجدها الجامع ، وهكذا فى سائر الأقطار المغربية ، ثم أشعلت فيها النيران .

وقد يكون لذلك أسباب أخر غير ما ذكرنا من نقد فى أحاديث هذا الكتاب منها ما يمت إلى السياسة ، أو الحزازة الشخصية بصلة . . وليس هذا مقام تفصيله والإفاضة فيه إلا أن الواقع التاريخى لهذا الكتاب لم يسلم من القيل والقال ، والتصحيح والإعلال . . وقد اعترف الإمام الغزالى نفسه فى كتابه « جواهر القرآن » « بأنه لم يكن ممن عنوا بالحديث والخلافيات فى مسائل الفروع » ، وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة ، فإنا فى هذا البحث نبرأ من التجنى على الإمام الغزالى بغير ما دان به نفسه من تقصير فى معالجة الأحاديث الشريفة . . ومن المعقول أن الإقلال مع الإجادة والإحكام ، خير من الإسفاف دون بلوغ المرام ، ولا شك أن الحديث من أوائل ما يعتمد عليه المجتهد فى الفروع الفقهية ، فما بالك بمن يتصدى لمسائل العقيدة الأساسية ، وقد يكون من أسباب ذلك أن عصر الإمام كان عصر جدل فى العقيدة ، وكان الفقه قد استقرت أصوله ، وكثرت مؤلفاته ، وتعددت تفريعاته ، إلا أن هذا لا ينتهض عاملا يبرر الإكثار من الأحاديث على النحو الذى سلكه الغزالى ، فالواقع أن الإسلام لم يهاجم عن طريق القرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه وصيانته من الدخل والدجل ، وإنما اعتدى على الإسلام عن طريق الثغرات التى انصدعت فى نطاق الأحاديث الشريفة ، ووجد فيها أعداء الملة مرعى ممرعا للفتن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والدسائس ، مما حدا بأهل الجد والغيرة إلى التشمير عن ساعد العمل لتخليص الإسلام من الطفيليات الضارة التى عاشت عالة على حساب الصحيح من مبادئه وتعاليمه ، والصحاح من أحاديثه .

وكنا نرجو مخلصين أن يكون إمامنا الغزالى من هذا الطراز الذى قرعت أسماعه أجراس الخطر منذرة بتلك السموم التى تنفث فى جسم الإسلام بين ضباب الشك ، وظلام الأحقاد والإحن الموروثة .

فكان ينبغى له أن يعيد النظر مرتين قبل أن يسطر حديثا واحدا . ولا سيما أن خصيصة الغزالى أنه مفكر ثائر ، لا يؤمن حتى يفهم ، ولا يفهم حتى يدرس ، ولا يدرس حتى يتشكك ، ولقد درس الغزالى وفهم . وحصل كل ما وعته العقول والأفكار فى عصره الذى كان أجمع العصور للعلم وأحفلها بالمعرفة ، وأنه بلغ من ذلك مبلغا ليس بعده زيادة لمستزيد ، ولا وراءه غاية لمريد .

فما معنى ما حدث إذن فى « إحياء علوم الدين » . ؟ .

إن الغزالى بنعته السابق واحد من اثنين : إما أنه رجل تشبع حتى تضلع فى علوم الفلسفة والعقائد والجدل . ثم تقاصرت همته أو بالأحرى ضاق وقته عن العناية بالحديث ، ولعل اعترافه السابق فى « جواهر القرآن » يشير إلى هذا ، ولهذا عكف فى أخريات أيامه على قراءة الصحيحين ليكمل فى النهاية نقصا فاته فى البداية ، وحينئذ ما كان ينبغى له أن يقدم على عمل خطير كهذا دون أن يستوثق من الحديث رواية ودراية .

وأما أنه كان على علم بالحديث ضعيفه وصحيحه ، ومسموعه وموضوعه ، ثم أخذ بالفكرة القائلة : « إن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال » ولئن صح هذا فى ضعاف الأحاديث . فهو لا يصح فى موضوعها . على أننا لا نسلم تلك الفكرة لقائليها رغم ذيوعها وشيوعها ؛ لأنا لا نعرف لها أصلا علميا ، ولا سندا تاريخيا ، ولا ندرى كيف ، ومتى نشأت ، ولا عمن نقلت .

ولأن نقى بتلك الفكرة فى زوايا النسيان خير من أن نرددها فى مجال العرفان .

فالإسلام — والحمد لله — أغنى بصحيحه وصحاحه من أن يستعين بالضعيف من الروايات ، أو يستجدى المعلول من الأسانيد .

ومهما يكن من أمر فإن اللائق بماضى هذا الإمام الألمعى ، وسوابقه الحافلة بأمجاد الكفاح الفكرى ، ومفاخر الدفاع عن عقائد الإسلام ضد هجمات الفلاسفة . وأهل البدع والزنادقة ـ ليجعلنا نردد ما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين من أنه إذا وجد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل .

والناظر فى كتاب الإحياء تحت ضوء ما جمع فى كتب أئمة التصوف الأربعة : المحاسبي والخراز وأبى طالب المكى والقشيرى ، وهم الذين قيدوا مذهب الصوفية بعد تبديده ، وضبطوه بعد انتشاره - يرى أن كتاب الغزالى كان مرآة انعكست عليها أفكار هؤلاء الأئمة وآراؤهم ، وأن مسحة المتصوفة هى الطابع المميز ، والعنصر الغالب فى تصنيف هذا الكتاب ومن الممكن أن يقال : إن تلك الكتب كانت مراجع للإمام فى تأليف الإحياء إلى جانب علمه الغزير ، وعقله الكبير .

ولقد حدد الإمام الغزالى الخطوط العريضة التى تميز كتابه الإحياء عن أشباهه من الكتب التى شاركته فى موضوعه ، ولم ينكر أن الناس صنفوا فى بعض معانيه ولكنه يذكر ، أن كتابه يمتاز عن أمثاله بخمسه أمور :

أولا : حل ماعقدوه ، وكشف ماأجملوه .

ثانيا : ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه .

ثالثا : إيجاز ماطولوه ، وضبط ما قرروه .

رابعا : حذف ما كرروه ، وإثبات ماحرروه .

خامسا : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام ، ولم يتعرض لها فى الكتب أصلا ؛ إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد ، فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه على أمر يخصه ، ويغفل عنه رفقاؤه ، أولا يغفل عن التنبيه ، ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب ، أو لا يسهو ، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف .

وبعد :

فقد تبين من دراسة هذا الموضوع :

أن الإمام الغزالى مع احتفاظه بالإمامة فى علوم الفلسفة والمنطق والعقائد - لم تكن له عناية فائقة بالحديث ، ولذلك فإن نصف الأحاديث تقريبا التى انطوى عليها كتابه « إحياء علوم الدين » هى التى يصح الاعتماد عليها علما وعملا ، بينما النصف الآخر قد جمع أشتاتا من ضعيف وموضوع ومنكر ومضطرب ونحوه ، مما لا تتوافر معه الثقة للاحتجاج به ، أو الاستناد إليه ، وأنه حق على كل قارئ لكتاب الإحياء أن يسترشد بالإمام الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الكتاب ، فلا يتقبل منها إلا ما حسن كلام الحافظ فيه ، وأنه تغلب فيه النزعة الصوفية أكثر مما يظهر فيه الروح الفقهى القائم على الاستنباط من الأدلة المتداولة بين الفقهاء .

وأن مراجعه الأساسية - كما يبدو - هى كتب التصوف لا كتب الأحاديث المعتمدة ، ولا كتب الأصول الفقهية . ؟

محمد محمد الشرقاوى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مع القرآن في الآفاق

للأستاذ الحسيني عبد المجيد هاشم

اقتضت نهضة التسابق العلمي في غزو الفضاء ونجاح الرواد من الشرق والغرب أن تتجه الأبحاث حول الآيات الكونية في القرآن، وكتب العلماء والباحثون في معنى الآية القرآنية: «يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان».

وكانت مهمتهم أن يوفقوا بين الحقائق العلمية الثابتة، وبين القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إنه من عندالله الذي يعلم السر في السموات والأرض ومحال أن يصطدم مع نظرية علمية حقيقية.

ولقد صعد رواد الفضاء وداروا حول الأرض وارتفعوا في السماء، وأصبح ذلك حقيقة علمية لا يتطرق إليها الريب، فكيف يتفق هذا مع التحدي في الآية؟

رأى العلماء خروجا من هذا الحرج أن يفسروا «السلطان» بالعلم الاختراعي، فهم لم يصعدوا إلا بعلمهم الناتج عن أبحاث وكفاح، وبذلك فالقرآن يدعو للعلم والعمل.

وأنا معهم في أن القرآن يدعو إلى العلم والعمل ولكني أرى أن هذه الدعوة واضحة جلية في آيات كثيرة غير هذه الآية مثل: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون»، «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

وأننا إذا رجعنا إلى معنى السلطان نجد أنه بمعنى الأمر والحجة والولاية والقدرة.

وإذا كانت الحجة نوعا من العلم فهي علم يغاير علم التركيب والاختراع، ومن الممكن أن يكون السلطان بمعنى القدرة، ويطلق على مسببها مجازا وهو الاختراعات.

ولكن إذا كان الأمر كذلك، فأي معنى للتحدي بهذه الصيغة القوية لفريق الجن والإنس معا؟

على هذا التفسير الذي اختاره العلماء يكون المعنى يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، إنكم لن تستطيعوا ذلك إلا بعلمكم.

وعلى هذا النمط من التفكير لا داعي للتحدي فكل شيء لا يستطيع الإنسان أن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يفعله إلا على علم فالإنسان مثلا لا يستطيع الكتابة ما لم يكن على علم بمعرفة الحروف وقواعد الخط والإملاء . وهكذا فى كل أعماله لا يستطيعها ما لم يكن على علم بها . ولا يقال له أنت لا تستطيع أن تعمل ذلك إلا بعلمك .

وإننا لو سلطنا أضواء البحث على معنى « النفاذ » الذى هو موضوع التحدى لاستبان الأمر ؛ فى القاموس المحيط . النفاذ جواز الشىء عن الشىء وخلوصه منه كالنفوذ ، ويقال نفذ السهم من الرمية . إذا خالط السهم جوف الرمية وخرج طرفه من الشق الآخر ، وهل تحقق النفاذ بهذا المعنى لرجل الفضاء فاخترق أقطار السموات كلها وجاوزها إلى عالم آخر فوقها غير عالمها حتى يذهب ، نظن أننا أمام مشكلة تعارض الحقائق العلمية مع النصوص القرآنية ، وحتى نؤول النصوص تأويلا غير سائغ يذهب من روعتها ويغير معناها . لم يحصل النفاذ فلا تعارض ، والتحدى قائم لا محالة ، بل إن هذا النفاذ لم يفكر فيه المفكرون حتى نضطر إلى التأويل غير المناسب باسم التحرر مع العلم الحديث .

إن رجل الفضاء لم يخبر بأنه نفذ من أقطار السموات إلى عالم آخر . إن كل هدف التسابق أن يصل إلى القمر ، والقمر حفيد الأرض كما يقول علماء الجغرافيا وأقرب الأجرام السماوية إليها فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريبا .

ونحن لا نريد بذلك أن ننفى بأنهم سيصلون إلى القمر . بل ولا مهمتنا أن ننفى أنهم لن يصلوا إلى مدى أبعد من ذلك بكثير وكثير . ولكن كما قلنا نقرر بأن هذا لا يسمى نفاذا فلا تعارض مع الآية حتى نفسر السلطان بالعلم البشرى الاختراعى مما يفقد الآية معنى التحدى .

وإذا كان النفاذ لم يتحقق للرواد وليس فى مقدور البشر وعلمهم ذلك فإن سلطان الله وحده هو المحقق لهذا النفاذ . إنها القدرة الخارقة الفائقة ، من معانى السلطان : الولى ، « الله ولى الذين آمنوا » وكانت ولاية الله واضحة لرسولنا صلى الله عليه وسلم . وكان النفاذ لا بعلمه ولا باختراعه ، ولكن برعاية الله .

اخترق السموات وأقطارها ووصل إلى الأفق الأعلى ورأى الآيات الكبرى : سدرة المنتهى جنة المأوى ، الكرسى الذى وسع السموات والأرض ، وكان ذلك فى ليلة المعراج من غير صواريخ ولا مخترعات وإنما كان بأمر صاحب الإبداع والسلطان « وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . وكان ذلك حقيقة فى مأمن من خداع الحواس .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

«إن هو إلا وحى يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى» إلى قوله تعالى: «إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى».

هـــذا إذا فهمنا الآية مستقلة عن جوها القرآنى مما قبلها وما بعدها. أما إذا فهمناها فى جوها بالربط بين سابقها ولاحقها فأيضا لا اعتراض أيضا بل لا علاقة لها من قريب أو بعيد بغزو الفضاء. إنما يتناسب البحث مع غزو الفضاء فى الآية: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق». فالغزو تحقيق لهذه الآية، أما آية التحدى بعدم النفاذ فهى من سورة الرحمن. وابتدأت السورة بذكر الرحمن الذى من رحمته علم القرآن، خلق الإنسان، ومن عليه بالعلم علمه البيان: فالله هو الرحمن والمعلم وخالق الشمس والقمر وخالق الكون بسمائه وأرضه، وفاكهته ونخله، وخالق الإنسان من صلصال كالفخار، وخالق الجان فجعل أصله من مارج من نار، ومرج البحرين وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان، كما أخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام. ولكن كل هذا الكون بخلقه ونعيمه إلى فناء. كل من عليها فان. والباقى الحق هو الله ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

أصبحنا بعد قوله كل من عليها فان بإزاء التحدث عن الآخرة فالباقى هو الله يغير ولا يتغير، كل يوم هو فى شأن. فى هذا الوقت ستفقد القدر الاختيارية أو الصورية ويظهر الأمر لصاحب الأمر (لمن الملك اليوم لله الواحد الواحد القهار). «سنفرغ لكم أيها الثقلان» وسيكون الحساب، وفى ذلك الوقت لا قوة لنا على اكتساب الثواب ولا على اجتناب العذاب ولا اختيار ولا تكليف. بل حساب: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت»، ولا مهرب، ولا ملجأ من الله إلا إليه. «إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا وانجوا من الحساب: لا تنفذون إلا بسلطان الله، بأمره سبحانه وتعالى، تنجون أو تعذبون تساقون إلى النار أو الجنة. «فبأى آلاء ربكما تكذبان» يا معشر الجن ويا معشر الإنس. فالكلام القرآنى السابق للآية إنما هو فى الحياة الآخرة، والكلام اللاحق للآية فى الحياة الآخرة. بعد الآية يبين الله نوع العذاب للمعذبين يقول تعالى «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان».

واستمرت الآيات بأن المجرمين يعرفون

(البقية على صفحة ٣١٢)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الطرب والنشوة على كثرته يؤكد أن الشاعر قد أسهم فى ميدان الغناء بشعر كثير .

ولكن تغافل أبى الفرج عنه قد كان مدعاة لتساؤل كبير من الناقدين ، حتى اهتدوا إلى السر الأصيل ، ذلك أن أبا الفرج تلميذ الأخفش تربى على يده ، وتشرب ميوله وأهواءه وبين الأخفش وابن الرومى من الأهاجى المقذعة ما اشتهر بين الأدباء ، وسجله ديوان الشاعر فى صفحات كثيرة ، فلا عجب أن ينشأ أبو الفرج مفطورا على كراهية الشاعر انتقاما لأستاذه وغيرة عليه ، ومن يدرى لعل أبا الفرج من ناحية ثانية قد رأى أن يمالىء الوسط الاجتماعى بإغفاله ابن الرومى كما يقول الأستاذ كامل كيلانى ، إذ أنه هجا كثيرا من آباء أعيان العصر وأجدادهم بما يثير حفائظ ذوى الأرحام ! والمدهش أنه تعرض لابن الرومى عرضا فى موضعين اثنين من موسوعته الحافلة ليثلبه وينقده ، فكشف بذلك عن دخيلة نفسه وحقائق ميوله ، هذا التحامل السابى لم يغير شيئا من حقيقة الشاعر ، بل عاد باللائمة الجارحة على الأصفهانى ودفع القراء إلى مزيد من القيل والقال .

نستطيع أن نقول فى ضوء هذين الشاهدين أن على المؤرخ المعاصر أن يكتب عن حوادث عصره ما شاء ، وعلى الناقد أن يتتبع المؤرخ وان يعجزه أن يفضح ما استتر من ملق مغرض أو تحامل بغيض ؟

محمد رجب البيومى

(بقية المنشور على صفحة ٣٠٧)

بسيماهم ويؤخذون بالنواصى والأقدام . ويقال لهم هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، إلى آخر أنواع العذاب المعدة للمجرمين ثم بينت الآيات نوع النعيم المقيم لمن خاف مقام ربه ، فله الجنان وما فيها من كل فاكهة زوجان ، وقاصرات الطرف ، والياقوت والمرجان ، والحور ، والاتكاء على رفرف خضر وعبقرى حسان .

فإننا نجد فى كلتا الحالتين فى تفسير الآية أنه لا تعارض مع الواقع والقرآن ، ولا داعى للتأويل البعيد . وسيظل كتاب الله لسان صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والسبب فى ذلك أنه تنزيل من حكيم حميد .

الحسينى عبد المجيد هاشم

المدرس بمعهد الزقازيق

قضية اليوم :

كتابة التاريخ المعاصر

للأستاذ محمد رجب البيومي

ارتفعت أصوات علمية فى الدوائر الجامعية تنادى بوجوب التريث فى كتابة تاريخنا المعاصر ، وتعلن أن التاريخ النزيه المنصف لا يمكن تحريره بريئا من عناصر التأثير والتأثر إلا بعد خمسين عاما من وقوعه ولكن أصواتا علمية أخرى تصدت لمناهضة هذا الرأى ، وأشفقت أن يطول بنا التلبث والانتظار حتى تنقضى المدة المعلومة ، وإذ ذاك نرجع إلى ما كتبه الأجانب عنا ، فيكون المصدر الأول للرصد والتسجيل ، وتصبح أقوال الأباعد وحدها مصدرا دافقا يحمل فى تياره مئات الوثائق والأسانيد ـ وأكثرها يمثل وجهة نظر معينة ـ مشفوعة بما يفسرها من تعليل يخطئ مرماه تارة ، ويصيبه أخرى ، وفى ذلك حرج خطير .

وقد انتقلت هذه الصيحات المتعارضة من أبناء الجامعات إلى ميادين الصحافة ، فطلعت علينا جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٦٢ بخلاصة مبتورة لما يدور فى المضمار الجامعى من اتجاهات ، كما قامت بأسئلة متعددة دفعت بها إلى كبار مؤلفى التاريخ فى عصرنا الراهن ، ليبدوا آراءهم الحرة فى هذا النقاش المتضارب ، وقد جاءت أجوبة الأساتذة العلامة ساطع الحصرى ، والبحاثة المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، والدكتور الجامعى محمد أنيس مؤكدة ضرورة الإسراع فى تسجيل الحوادث الراهنة دون إبطاء ، وكنا نطمع أن نجد من التعليل والتحليل لهذه الوجهة المحترمة ما يرضى حاجة النفس ، ولكن طبيعة المجال الصحفى لا تتسع للبسط المنشود ، ولعل ما نشر من آراء هؤلاء الأقطاب بالأهرام قد اجتزئ اجتزاء قاهرا دون أن تكون لهم يد فى هذا الاقتضاب الجائر إذ لا يعقل أن يبسط عالم متمرس رأيه الهام فى هذه القضية فى حدود لا تكاد تخرج عن نعم أو لا ، مما يدفعنى إلى إبداء الرأى هنا دون تقييد ، عاتبا على الصحافة المتزنة أن تضيق بأمثال هذه البحوث الجادة ، وهى تفسح المجال العريض لأبواب التسلية والتشويق .

ونحن نعلم بادئ ذى بدء أن الغرض الشخصى قد ظهر بوضوح فى بعض مؤلفاتنا القديمة ، فأنت تعرف نزعة المؤرخ واتجاهه من خلال ما يسطر من الأنباء ، وما يبديه

من الأحكام ، حتى اشتهر الكثيرون منهم بميولهم العباسية أو العلوية أو الاعتزالية أو السنية مما لا مجال لإنكاره ، وحتى رأينا بعض هؤلاء يعيش فى كنف دولة خاصة فتسبغ عليه من عطاياها الثمينة ، ومناصبها الفاخرة ما يجعل عين الرضا كليلة عن كل عيب ، حتى اشترط بعض المنصفين فى كتابة التاريخ أن تكون المعاصرة منتفية بين الكاتب والمكتوب ، كيلا تتحكم العوامل النفسية ، من رضا أو غضب ، أو منافسة ومعاداة فى تسجيل آراء ناشزة تكتب على غير وجهها الصحيح .

أجل ، نعلم ذلك ولا ننكره ، بل نجزم بوقوعه فيما أسلف مؤرخو الزمن القديم من بحوث مجحفة تتطلب النقد الدقيق ، ولكننا نعلم مع ذلك أن الزمن قد تغير ، وأن ما كان محتملا من التزييف والتمويه فى عهود الاعتزال والانكماش أصبح من غير المستطاع فى النصف الأخير من القرن العشرين ، حيث تتناقل الأنباء مسرعة فى كل مكان ، وتجد من المحللين والمفسرين ، من يزنها فى كل دولة بميزانه الراصد . ومهما اختلفت وجهات النظر فى الفهم والتدليل فإن مجموعة هذه الموازين ستؤدى إلى رأى قريب من الواقع وستحمل من بواعث النقد ما ينفى تدليس المغرض ، ويفضح تمويه ذوى الأهواء والميول ، فلم تعد أية دولة من دول الأرض بمعزل عن الأضواء الكاشفة فى شتى بقاع العالم ، بل أصبح الحادث اليسير فى بقعة نائية يجد من التفسير فى أمهات الصحف والإذاعات شرقية وغربية ما يشرحه على وجهه المعقول ، ومهما حاول بعض المغرضين تزييفه فالكثرة الكاثرة لن تخدع بتضليل

نعرف مثلا أن ألمانيا النازية قد حتمت على المؤرخين من الألمان أن يجعلوا الهتلرية الفردية والآرية الجنسية فى مكان التنزيه والارتقاء ، وفرضت على أجهزة النشر من إذاعة وصحافة ومؤلفات وجامعات ومدارس أن تطرى أعمال الحاكمين إطراء لا يلم به النقد - وإن كان مخلصاً غيوراً - حتى أصبح الشعب الألمانى يشعر بارتقائه النوعى بين الشعوب المختلفة من ناحية ، ويعتقد فى حكامه من الإخلاص والكفاية والنزاهة ما لا تدركه الشبهات من ناحية ثانية ، نعرف ذلك جيداً ، ونعرف معه أن الدول المحايدة للنازية - فضلا عن المعادية لها - قد تتبعت أدوار الحكم النازى تتبعاً مستقرئا دقيقاً ، ثم أصدرت عليه حكمها الحيادى ، حتى إذا انتهت الحرب العالمية الثانية رأينا من مؤرخى الألمان أنفسهم من يبرأ مما كتب ، ومن يبدأ فى تسجيل صفحات جديدة تعتمد على التمحيص والتدقيق ، وتعرض وجهات النظر فى العالم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المتمدن ، دون أن يكون لما كتب من تاريخ النازية فى حياة هتلر تأثير ما فى الجرح والتعديل .

ومالنا نذهب بعيداً ، وأمامنا العدوان الثلاثى على مصر ! ! فقد حاولت بعض الأقلام الغربية فى انجلترا وفرنسا أن تفسره على غير وجهه العدوانى وأن تختلق من التبريرات المنحرفة ما يشفع لحدوثه معتمدة فى تدليس ظاهر على ما دونه مجرمو الاعتداء من افتراءات كاذبة تدفع عنهم معرة الحق والرعونة وقصر النظر ، واندفعت الصحف الحاقدة تفسح لهؤلاء مكان الصدارة فى التمويه والخداع ، لتخلق رأيا عاما يرحم المنهزم ويرثى لكبوته المفضوحة ، ولكن أشعة الحق قد تلاحقت من كل مكان لتكشف ظلام الخداع ، حتى رأينا من المحافظين العتاة أنفسهم من يفضح إيدن ويكشف رعونته ، ويعلن أنه فقد كياسته البصيرة حين قام بمؤامرة خاسرة طردته من مركزه السياسى ، وفرضت عليه العزلة الباردة المؤسية فى زاوية الخيبة والإخفاق ، وقد يعجب القارئ حين يعلم أن أحد هؤلاء الناقدين المتحررين نجل الداهية الاستعمارى المستر تشرشل وراعيه الأمين ! !

هذه ناحية أولى ، وهناك ناحية ثانية جديرة بالالتفات وهى أن كتابة التاريخ فى عصرنا الراهن ، لم تعد مجرد روايات عن أعمال ترصد فى نطاق الشهور والأعوام حتى يجوز التدليس فى خلق مكرمة زائفة ، أو افتراء بطولة كاذبة ، أو التحدث بأريحية موهومة ، بل إنها لتخضع الآن إلى منطق منهجى يربط الأسباب بالمسببات ، ويسير علوم الاجتماع والنفس والاقتصاد بقواعدها الثابتة ونظرياتها المستحدثة فى ركاب هذا التاريخ ، تفحص رواياته وتعلل فجاءاته ، وتنفى زائفه ، وتتشرب حياة المؤلف فتفهم عوامل تكوينه ، وتفسر مختلف اتجاهاته ، وتعلل ما يتورط فيه من انحرافات ، فهو فى هذا النطاق العلمى الدقيق مضطر إلى لزوم الحيدة فإذا اندفع إلى الغرض الشخصى كشفه البحث العلمى ببصيرته النفاذة ، وتامت القرائن والملابسات بما يؤيد منطق الأشياء ومجريات الحوادث فى تيار واضح مفهوم ، ثم إنه ليس وحده فى الميدان ، فلدينا ما قاله غيره عن موضوعه ، وهناك المقارنة الهادفة بين قول وقول ، واتجاه واتجاه ! ! .

لا حرج إذن من كتابة التاريخ المعاصر ولا حرج إطلاقا من الغرض الشخصى فى عصر تعددت به أساليب النقد وفنون التمييز ، بل لا حرج علينا فى قراءة ما كتبه المؤرخون قديما مما سجله الهوى المغرض من محاسن وغفل عن رصد من سوءات ، لأن فى تقصى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأسباب ، ومعارضة النصوص ، وتحليل المواقف ، وتوضيح الملابسات ما يكفل رد الحق إلى نصابه وتمييز الطيب من الخبيث !

وسأضرب مثالين من مزالق المؤرخين أحدهما إيجابي والآخر سلبي ، ليؤكدا بوضوح أن الغرض المائل عن الحق لا يحول دون الواقع الصريح ، وأن ذوى الأهواء المنحرفة فى طيات العصور الغابرة لم يثبتوا أمام التحقيق العلمى ، فعرف معاصروهم ما ارتطموا فيه من جور شائن وإذا كان العاصرون أنفسهم قد مازوا الجيد من الردىء ، فإن من تلاهم من الأجيال المتتابعة قد نظروا إلى الموضوع من زاوية منفرجة ، فأوسعوه بحثا وتحليلا وأدركوا فوق ما أدركه أسلافهم الغابرون كثيرا من بواعث الاختلاق وعلل التمويه ، وبقى الزيف سافرا خجلا ينادى بتمويهه الخداع .

لقن شن الفتح بن خاقان الكاتب الأندلسى الشهير على معاصره الفيلسوف النابغة أبى بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه هجوما جارحا أراد به أن ينال من مكانته وموهبته ، إذ قال عنه فى قلائد العقيان : « هو رمد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفا ومجونا ، وترك مفروضا ومسنونا ، فما يتشرع ، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أطهر بخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار فى جدث ، ولا أقر ببارئه ومصوره ، ولا قر بباريه فى ميدان تهوره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقانيم ، ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ... إلى آخر ما انحدر إليه من إسفاف » .

فهل استطاع الفتح بن خاقان أن يزيح ابن باجة الفيلسوف عن قمته الشامخة قيد أنملة إنه دفع العقلاء إلى التفكير فى أسباب هذا الهجوم الظالم ، فعرفوا من تاريخ الفتح أنه يتكسب بكتاباته ، وأنه كان يطرق أبواب الأعيان من الفقهاء والرؤساء مسترفدا سائلا فإذا منحوه الكثير أطال المديح وأجزل الثناء ، فأعاد بذلك فى مجال النثر سيرة الوصوليين من الشعراء حين يرسلون مدائحهم وأهاجيهم وفق ما يرون من بذل وحرمان ، عرفوا ذلك فأنكروه ، ثم اتجهوا إلى مسلكه الشخصى فرأوا لديه من التبذل والسقوط ما لا يمنع التزيد والافتراء ، ثم نظروا من جهة ثانية إلى الفيلسوف النابغة فرأوه عبقريا

فى مضماره ، فهو أول المشتغلين بالفلسفة فى الأندلس فى عصر سيطرت فيه طبقات الفقهاء من المتشددين ، فتقيدوا بالنقل الظاهر ، وحاربوا كل تجديد يستند إلى عقل أو نظر ، وزاد من خطورتهم المؤثرة ما حباهم به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من نفوذ قاهر لا يقف أمامه معارض ، فهم أولو الكلمة المسموعة ، وأهل الحل والعقد فيما يحللون ويحرمون ، ومع تزمت هذا الجو الغائم فقد جهر الفيلسوف بمعتقده ، وكان أول هؤلاء الذين حاولوا أن يبحثوا شئون الفلسفة مستقلة عن قواعد الدين وأعلن أن فى مكنة العقل الإنسانى أن يصل إلى ما ينشده من من المعرفة الحقيقية بالنظر والتفكير دون حاجة إلى التصوف الجاهد والشطح البعيد!!

هكذا المفكر الأريب لا يتأتى له أن يعجب بكتابة الفتح وسجعاته ، وكلها من وجهة نظره الفلسفى سطور فارغة يتمقها التكلف النافر دون أن تهدف إلى جلاء حقيقة مطموسة ، أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ، وهو بهذا الاعتبار لا يعبأ بتأليفه ولا يهمه أن يكون بين هؤلاء الذين يسبغ عليهم باطل الأمداح وزائف الحسنات فإذا قصده الفتح ليسلب من ماله ما يدفعه إلى الإطراء المموه ، فهذا ما لا يقع موقع الارتياح من الفيلسوف الرصين ، لذلك رجع صاحب القلائد من ساحته بصفقة المغبون ، وطفق يكتب عنه ما هبط بالناقد دون المنقود وتذيع مقالة السوء عن الرجل فتجد بعض الصدى عند من يحاربون الحكمة والمنطق من الفقهاء وحدهم دون من يعرفون بواطن الأمور ، ثم تمضى الأيام ويطالع الخلف ما قاله الفتح ، ثم يقرءون ما قاله سواه ، فيوازنون بين ما يتعارض ويتناقض ، ويهتدون إلى مقطع الصواب دون تضليل !! بل إنهم ليضحكون ملء أفواههم حين يرون صاحب القلائد يعدل عن هجائه الفيلسوف فى كتابه (مطمح الأنفس) . ويتلمسون التعليل لذلك ، فيعرفون أن بريق المال يجذب الكاتب إليه دون اهتمام برصانة الخلق ونزاهة الضمير .

هذا مثال إيجابى لمؤرخ ذى غرض ، أما المثال السلبى فنجده عند صاحب الأغانى أبى الفرج الأصبهانى فقد تعرض فى موسوعته الضخمة لمئات من المشهورين والمغمورين ، وترك ابن الرومى الجبير ظنا منه أنه بتجاهله السلبى سيمحق تاريخه ، ويعفى على شعره ، وإذا كانت تراجم الأغانى قد وضعت وفقا للأصوات المختارة فإننا نجزم أن لابن الرومى مما غنى به من الشعر أضعاف ما لغيره ، فقد كان ذا حس مرهف نافذ وأذن موسيقية لاقطة ، وشعره فى المغنيات والمغنين ومجالس

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الطرب والنشوة على كثرته يؤكد أن الشاعر قد أسهم فى ميدان الغناء بشعر كثير .

ولكن تغافل أبى الفرج عنه قد كان مدعاة لتساؤل كبير من الناقدين ، حتى اهتدوا إلى السر الأصيل ، ذلك أن أبا الفرج تلميذ الأخفش تربى على يده ، وتشرب ميوله وأهواءه وبين الأخفش وابن الرومى من الأهاجى المقذعة ما اشتهر بين الأدباء ، وسجله ديوان الشاعر فى صفحات كثيرة ، فلا عجب أن ينشأ أبو الفرج مفطورا على كراهية الشاعر انتقاما لأستاذه وغيرة عليه ، ومن يدرى لعل أبا الفرج من ناحية ثانية قد رأى أن يمالىء الوسط الاجتماعى بإغفاله ابن الرومى كما يقول الأستاذ كامل كيلانى ، إذ أنه هجا كثيرا من آباء أعيان العصر وأجدادهم بما يثير حفائظ ذوى الأرحام ! والمدهش أنه تعرض لابن الرومى عرضا فى موضعين اثنين من موسوعته الحافلة ليثلبه وينقده ، فكشف بذلك عن دخيلة نفسه وحقائق ميوله ، هذا التحامل السابى لم يغير شيئا من حقيقة الشاعر ، بل عاد باللائمة الجارحة على الأصفهانى ودفع القراء إلى مزيد من القيل والقال .

نستطيع أن نقول فى ضوء هذين الشاهدين أن على المؤرخ المعاصر أن يكتب عن حوادث عصره ما شاء ، وعلى الناقد أن يتتبع المؤرخ وان يعجزه أن يفضح ما استتر من ملق مغرض أو تحامل بغيض ؟

محمد رجب البيومى

(بقية المنشور على صفحة ٣٠٧)

بسيماهم ويؤخذون بالنواصى والأقدام . ويقال لهم هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، إلى آخر أنواع العذاب المعدة للمجرمين ثم بينت الآيات نوع النعيم المقيم لمن خاف مقام ربه ، فله الجنان وما فيها من كل فاكهة زوجان ، وقاصرات الطرف ، والياقوت والمرجان ، والحور ، والاتكاء على رفرف خضر وعبقرى حسان .

فإننا نجد فى كلتا الحالتين فى تفسير الآية أنه لا تعارض مع الواقع والقرآن ، ولا داعى للتأويل البعيد . وسيظل كتاب الله لسان صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والسبب فى ذلك أنه تنزيل من حكيم حميد .

الحسينى عبد المجيد هاشم

المدرس بمعهد الزقازيق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

فى المقال السابق وعدت القراء بالمقارنة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية وها أنذا أفى بما وعدت، وسأقدم بين يدى البحث التعريف بالشريعة الإسلامية، والمراد بالقوانين الوضعية فأقول ومن الله أستمد العون والتوفيق: «معنى الشريعة».

قال الإمام القرطبى فى تفسيره (١). «والشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة، والشريعة فى اللغة: الطريق الذى يتوصل منه إلى الماء. والشريعة: ما شرعه الله لعباده من الدين، وقد شرع لهم يشرع شرعا أى سن والشارع الطريق الأعظم».

وقال الإمام الألوسى فى تفسيره (٢): (والشرعة بكسر الشين: الشريعة وهى فى الأصل الطريق الظاهر الذى يوصل منه إلى الماء والمراد بها الدين، واستعمالها فيه لكونه سبيلا موصلا إلى ما هو سبب للحياة الأبدية، كما أن الماء سبب للحياة الفانية أو لأنه طريق إلى العمل الذى يطهر العامل من الأوساخ المعنوية كما أن الشريعة طريق إلى الماء الذى يطهر مستعمله من الأوساخ الحسية، وقال الراغب: سمى الدين شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث إن من شرع فى ذلك روى وتطهر، وأعنى بالرى ما قاله بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أروى، فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب. وبالتطهر ما قاله تعالى: «ويطهركم تطهيرا» والمنهاج الطريق الواضح فى الدين والعطف (١) باعتبار جمع الأوصاف).

وقال الإمام الفيومى فى «المصباح المنير»: مادة «شرع». «الشرعة بالكسر الدين، والشرع، والشريعة مثله مأخوذ من الشريعة وهى مورد الناس للاستقاء، سميت بذلك لوضوحها وظهورها وجمعها شرائع، وشرع الله لنا كذا يشرعه: أظهره وأوضحه، والمشرعة بفتح الميم والراء شريعة الماء.

قال الأزهرى: ولا تسميها العرب مشرعة حتى يكون الماء عذبا لا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهرا معينا لا يستقى منه بر شاء، فإن كان من ماء الأمطار فهو السكرع بفتحتين،

(١) ج ٦ ص ٢١١

(٢) ج ٦ ص ١٥٣.

(١) يعنى فى قوله تعالى «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا».

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والناس فى هذا الأمر شرع بفتحتين وتسكين الراء أى سواء » .

ومما عرضناه يتبين لنا أن الشريعة فى العرف اللغوى إما الماء الذى يرد الناس والدواب فيشربون منه وينهلون ، وإما الطريق الواضح الموصل إلى هذا الماء ، وإما بمعنى التوضيح والبيان .

وأما معناها فى الاصطلاح الشرعى فتطلق على ما شرعه الله لعباده من الأحكام ، وهى بهذا المعنى الاصطلاحى لا تطلق إلا على التشريعات السماوية المنزلة من الله سبحانه وتعالى .

والمناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى ظاهرة بينة ، إذ الشرائع السماوية مورد عذب ولكل الناس منها شرب . وهى الطريق المستقيم ، الموصل إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ، وهى ظاهرة واضحة لا غموض فيها ولا التواء .

وفى المعنى الدقيق الذى أشار إليه الإمام اللغوى الأزهرى ما يلقى ضوءا على خصائص التشريعات السماوية من كونها مستساغة مقبولة وظاهرة واضحة ، ولا حرج فيها ولا مشقة ، بل هى سهلة ميسرة للطالبين ، وحظ الشرائع السماوية من هذه المعانى يختلف قلة وكثرة ، وظهورا وخفاء ، وأحظ الشرائع السماوية وأوفاها وآصلها فى هذه الخصائص الشريعة الإسلامية التى هى خاتمة الشرائع والأديان .

ولفظ الشريعة وإن كان يجوز إطلاقه على جميع الشرائع السماوية إلا أنه عند الإطلاق ينصرف إلى الشريعة الإسلامية .

والشرائع السماوية كلها تتفق فى العقائد والأصول كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والضروريات الخمس وهى حفظ الدين والنفس ، والعقل ، والنسب ، والمال . وعلى هذا يتنزل قوله سبحانه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [1] . وقوله . « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » [2] .

وتختلف فى الفروع على حسب الأزمان والأحوال ، وعلى هذا يتنزل قوله سبحانه : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » [3] .

والإسلامية نسبة إلى « الإسلام » وهو فى اللغة بمعنى الانقياد والاستسلام والإذعان والخضوع ، والمراد به فى لسان الشرع : الدين العام الخالد الذى جاء به نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الدين الذى ارتضاه

(١) الأنعام ٩٠ .
(٢) الشورى ١٣ .
(٣) المائدة ٤٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الله سبحانه للبشرية جمعاء وللناس جميعا ، وهذا هو الذى صدع به الوحى فى قوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » (١) وقوله : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٢) . وإذن فالشريعة الإسلام ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده من التكاليف والأحكام على لسان خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذه الشريعة منها ما يتعلق بالعقائد كالإيمان بالله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونحوها ، والعلم الذى يبحث فيها هو علم « التوحيد » أو « الكلام » ، ومنها ما يتعلق بتهذيب النفوس وتربيتها على الفضائل والآداب والعلم الذى يبحث فيها هو علم « الأخلاق » ، ومنها ما يتعلق بأفعال المكلفين وتصرفاتهم والعلم الذى يبحث فيها من الأحكام العمليه واستخراجها من أدلتها التفصيلية وينقسم علم الفقه إلى عدة أقسام ؛ فمنه ما يقصد به التقرب إلى الله سبحانه وتزكية النفوس وتطهيرها كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج وهو ما يعرف بالعبادات ومنه ما يتعلق بالأسرة وتكوينها ونظامها من زواج ، وطلاق ، ونفقات ، وعدة ، ونسب وحضانة وما إليها وهو ما يعرف بالأحوال الشخصية ، ومنه ما كان متعلقا بالأموال والتصرف فيها من بيوع وإجارة ، ورهن ، وسلم ، ودين ، وشركة ونحوها وهو ما يسمى بالمعاملات ، ومنه ما كان متعلقا بالجرائم وما يترتب عليها من عقوبات وآثار ، وهو ما يسمى بالحدود والتعازير أو العقوبات وما كان منه متعلقا بالقضاء ونظمه والدعوى وأنواعها ، وأدلة الإثبات وما إلى ذلك يسمى بالمرافعات ، وما كان منه متعلقا بالحروب وآدابها والمعاهدات والصلح والأمان وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها هو ما يعرف بالسير وهذا الجانب الفقهى العملى من الشريعة هو ما ستدور حوله المقارنات ولم يقسم الفقهاء القدامى الفقه هذه التقسيمات بالفعل وإنما هذا من عمل الفقهاء المحدثين نهجوا فيه منهج علماء القوانين إذ قسموها إلى ما يشبه هذه القسمة تيسيرا لدراستها والكتابة فيها (١) والذى يعنينا فى المقارنة ما عدا العبادات ؛ إذ القوانين لم تعرض لجانب العبادات أما « القوانين الوضعية » فالقانون هو القاعدة الكلية التى يتعرف منها أحكام جزئياتها والمراد بها النظم التى وضعها الواضعون لتنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض وبيان آثار التصرفات سواء منها

(١ ، ٢) آل عمران ١٩ ، ٨٥

(١) أحكام المعاملات الشرعية للأستاذ على الخفيف ص ٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما يتعلق بالمعاملات « المدنيات » ، أو العقوبات أو بنظام الأسرة أو علاقات الأمم بعضها ببعض فى السلم والحرب وسميت بالوضعية تمييزا لها عن التشريعات السماوية ، والقوانين الوضعية متعددة بتعدد واضعيها ، وقد تتفق ، وقد تفترق ، ومنها ماهو مكتوب مدون ، ومنها ماليس بمدون . وبعض الكاتبين قد يطلق عليها تشريعات . والأولى والأجمل ألا يطلق ذلك وأن يقصر لفظ الشريعة أو التشريعات على الشرائع السماوية وإذ قد انتهينا إلى هذا فلنأخذ فى المقارنات .

(١) من ناحية الأصل والمصدر . وهو أهم وجوه المقارنة وأصلها .

مصادر الشريعة الإسلامية :

ترجع الشريعة الإسلامية إلى مصدرين أصليين وأساسين شريفين :

(أ) القرآن الكريم : وهو الكتاب الإلهى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لهداية الخلق ، المعجز بلفظه ، المتعبد بتلاوته ، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، أنزله الله على نبيه محمد فى بضع وعشرين سنة ، كفاء لحاجات الخلق ، ومصالح البشر فى أمور دينهم ودنياهم .

وقد نص فى القرآن على كثير من الأحكام والتكاليف الشرعية ولا سيما فى الأمور الاعتقادية والتشريعات والآداب التى لا تختلف باختلاف الزمان ، كالتوحيد والأمر بالعدل والصدق والنهى عن الظلم والكذب وحل البيع وحرمة الربا وأحكام النكاح والطلاق ، وحرمة الخمر والميسر ، والزنا ، والسرقة ، وقطع الطريق ، وحرمة التعدى على الدماء والأعراض كالقتل والقذف إلى غير ذلك من الأحكام التى نص عليها فى الكتاب .

كما جاءت بعض أحكامه غير مصرح بها إما لمجيئها فى ضمن غيرها وإما لفهمها بطريق الفحوى والإشارة ، وذلك مثل استنباط وجوب النفقة للولد على أبيه من قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (١) فإن إيجاب رزق الوالدات وكسوتهن على الوالد لأجل الولد يدل على وجوب رزق الولد نفسه وكسوته على أبيه بطريق الأولوية ومثل أخذ حرمة سب الوالدين أو ضربهما من قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما (٢) » بطريق الأولى بل أخذ الأئمة بعض الأحكام من القصص القرآنى وذلك مثل قصة الزرع الذى أفسدته الغنم لصاحبه وهى المذكورة فى قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين .

---

(١) البقرة ٢٣٣ .

(٢) الإسراء ٢٣ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما (٣) ، فقد حكم فيها داود بالغنم لصاحب الزرع وأما سليمان فقد حكم لصاحب الزرع بالغنم ينتفع بها وأمر صاحب الغنم بزرع الأرض حتى يعود الحرث كما كان فإذا عاد ترادا فكان أرفق ، ومع أن هذه القصة فى شريعة غير شريعتنا فقد استفاد منها بعض الفقهاء فى شريعتنا واستأنسوا بها فيما ذهبوا إليه ، وهو يدل على مبلغ ما وصل إليه الفقهاء المسلمون من مرونة وسعة أفق فى فقههم واجتهادهم .

كما اشتمل القرآن على بعض القواعد العامة التى يعول عليها الفقيه فى الاجتهاد فى الأمور التى لم يرد فيها نص كقاعدة « اليسر ورفع الحرج » ، وقاعدة « لا تكليف إلا بما يطاق » وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث وقد شاء الله سبحانه أن يجىء القرآن الكريم على هذا الوضع الدقيق الفائق ليكون ذلك سبيلا إلى استنباط ما يساير العصور والأحوال ويفى بأحكام ما يجد للناس من وقائع وأحداث تتجدد بتجدد الأزمان وبذلك تتحقق مصالح الناس ويقوم البرهان على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان .

(١) الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ ومعنى نفشت أى رعته ليلا بلا راع

(ب) السنة :

وهى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وإذا كان القرآن هو الأصل الأول للتشريع فالسنة هى الأصل الثانى وهى مبينة للقرآن ومفسرة له ، تبين مجمله وتفسر مبهمه ، وتزيل إشكاله ، وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه إلى غير ذلك قال عز شأنه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » فكان النبى صلى الله عليه وسلم يبين تارة بالقول وتارة بالفعل وتارة بهما معا وقد ثبت أنه قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وقال : « خذوا عنى مناسككم فعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » رواه مسلم . والسنة كما تأتى للبيان تأتى مستقلة بالتشريع فى بعض الأحيان وذلك كما فى تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها ، وتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير وتحريم لحوم الحمر الأهلية . والسنة منها ما هو بالوحى وهو كثير سواء أكان ذلك بالوحى الخفى أو الجلى كما فى قصة الرجل الذى أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب رواها البخارى ، ومنها ما هو بالاجتهاد وهو ما عليه المحققون وإقرار الله لنبيه فى حكم اجتهد فيه تصديق له وتأييد ، إذ محال أن يسكت الوحى عن النبى فى أمر اجتهد فيه ولم يوافق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيه الصواب والحق فمن ثم كان ما اجتهد فيه النبي وأقر عليه بمنزلة الموحى إليه فى الصدق وإصابة الصواب .

« حجية السنة » :

وقد أجمع المسلمون على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ثبتت فهى حجة فى الدين ودليل من أدلة الأحكام بل حجيتها ضرورة دينية كما قال الشوكانى ، وقد دل على ذلك القرآن نفسه قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] ، وقال : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[2] وقال : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[3] ، وغير ذلك كثير . وفى السنة الثابتة عن المقدام بن معد يكرب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . « ألا وأنى أوتيت الكتاب ومثله معه - يعنى السنة - ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ... » رواه أبو داود ، ولما قال رجل لمطرف بن عبد الله لا تحدثونا إلا بالقرآن فقال : « والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا » وقال الإمام الأوزاعى : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب » .

وقد فتح النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه باب النظر والاجتهاد ، فيما لم يرد فيه قرآن أو سنة ، فقد روى أنه لما ولى معاذ بن جبل قضاء اليمن قال له . بم تقضى ؟ قال . بكتاب الله قال . فإن لم تجد قال . أقضى بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد قال : فإنى أجتهد رأيى ولا آلو - أى أقصر - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله .

وقد اجتهد بعض الصحابة فى عهد الرسول إلا أن اجتهادهم لا يكون حجة إلا إذا أقرهم عليه وبهذا التقرير اكتسبت أحكامهم الصبغة التشريعية .

بعد عصر الرسول :

وعلى هذا الدرب سار الخلفاء الراشدون فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا عرضت عليه قضية نظر فى كتاب الله ، فإن لم يجد نظر فيما يحفظ من سنة رسول الله ، فإن لم يجد سأل الناس هل فيكم من يحفظ فى هذا

(١) الحشر ٧ .
(٢) النساء ٨٠ .
(٣) النساء ٦٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأمر سنة ؟ فإن لم يجد جمع رءوس الناس وخيارهم واستشارهم فيجتهدون ، وكذلك كان عمر رضى الله تعالى عنه إذا لم يجد فى المسألة كتابا ولا سنة ولا قضاء لأبى بكر جمع وجوه المسلمين واستشارهم ، وقد يجمعون على الأمر وقد يختلفون ، فإذا أجمعوا كان الحكم المجمع عليه قاطعا فى النزاع المعروض عليهم ؛ لأنهم لا يجمعون على ضلالة ، وهذا هو أساس الإجماع الذى عد مصدراً ثالثا من مصادر التشريع فى الإسلام وإذا اختلفوا فلاختلاف الأدلة ، وتفاوت وجوه النظر والاستدلال ، وكل مجتهد منهم يظن ظنا راجحا أن ما وصل إليه هو حكم الله فيه ، وحين اختلافهم لا يكون رأيهم ملزما للخليفة فله أن يختار ما تطمئن إليه نفسه ويراه أصلح ، كما أنه لا يكون قول أحدهم حجة على الآخر ، وفى باب النظر والاجتهاد كانوا يقيسون الأمور بأشباهها ، ويلحقون الفرع بالأصل ، وقد يتجهون إلى تطبيق قواعد الشريعة العامة التى عرفوها من الرسول واستخلصوها من النصوص ، واستوحوها من روح الشرع ، فكان ذلك طريقا من طرق التعرف إلى الحكم ، وهكذا صارت مصادر الشريعة وأدلتها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والنظر والقياس .

وفى الحقيقة الآخران يرجعان إلى الأولين ؛ لأن الإجماع لا بد له من دليل وإن لم نطلع عليه ، وهو إما قرآن أو سنة ، والقياس لابد فيه من مقيس عليه وهو إما قرآن أو سنة فعند التحقيق يكون مرجع الشريعة الإسلامية إلى القرآن والسنة وقد جاءا وافيين بجميع ما يحتاج إليه البشر فى دينهم ودنياهم على نحو ما أسلفنا .

أما مصدر القوانين الوضعية فسواء أكانت وضعت مستقلة أو أخذت من غيرها كمعظم القوانين الأوربية التى أخذت من القانون الرومانى فمرجعها إلى عقول البشر وتفكيرهم وهذا أمر من المسلمات إذ لم يزعم أحد أن هذه القوانين ترجع إلى أصل سماوى .

ويترتب على هذا الفرق الأصيل فى المصدر بالنسبة إلى الشريعة الإسلامية النتائج الآتية :

(١) القداسة (٢) الموءمة للفطر والطبائع (٣) الموافقة للصواب والحق وعدم احتمال الخطأ والغلط واتباع الأهواء وقد طال الحديث اليوم فلنرجىء الحديث عنها إلى المقالات الآتية إن شاء الله تعالى ؟

« للحديث بقية »

محمد محمد أبو شهبة
الأستاذ بكلية أصول الدين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مفردات قرآنية :

التجارة فى القرآن

للأستاذ احمد الشرباصى

— ٤ —

تحدثنا فيما مضى عن تجارة الإنسان مع الإنسان ، والآن ننتقل إلى تجارة الإنسان مع الرحمن تبارك وتعالى ، وفى هذا النوع من التجارة يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين »[1] .

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن أن الصحابة رضى الله عليهم أرادوا أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله تعالى سورة الصف ، وفيها الآيات السابقة[2] .

[١] سورة الصف الآيات ١٠ ـ ٣ .

[٢] تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٣٦١ .

وقال مقاتل : نزلت فى عثمان بن مظعون ، وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أذنت لى فطلقت خولة (زوجته) وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ، ولا أنام بليل أبدا ، ولا أفطر بنهار أبدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من سنتى النكاح ولا رهبانية فى الإسلام ، إنما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وخصاء أمتى الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتى : أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

فقال عثمان : والله لوددت يا نبى الله ، أى التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها . فنزلت الآيات[1] .

والتجارة هنا هى التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تبارك وتعالى ، وهى التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والقيام بالأركان فمن آمن وأقر وعمل صالحا فله الأجر والربح الوافر واليسار المبين ، ومن أعرض عن العمل الصالح فله الحسرة والخسران .

[١] تفسير القرطبي ج ١٨ ـ ص ٨٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن التجارة هنا الجهاد فى سبيل الله وهو ثلاثة ألوان : جهاد فيما بين العبد ونفسه ، وهو قهر النفس ، ومنعها من اللذات والشهوات ، وجهاد فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع فيهم ، ويشفق عليهم ويرحمهم ، وجهاد فيما بينه وبين الدنيا ، وهو أن يتخذ زادا لمعاده وللقاء ربه [١] .

وثواب هذه التجارة هو غفران الزلات ودخول الجنات ، والمساكن الطيبة فى جنات عدن ، أى جنات الإقامة التى لا ظعن فيها ، والدرجات العالية ، ويزيدهم الله على ذلك زيادة يحبونها وهى النصر منه إذا قاتلوا فى سبيله ، ونصروا دينه ، لأنه يتكفل حينئذ بنصرهم : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، وهناك فوق هذا فتح قريب عاجل ، فخير الدنيا موصول لهم بنعيم الآخرة الذى ينتظرهم ، ولذلك قال : « وبشر المؤمنين [٢] » . يقول صاحب (فى ظلال القرآن) :

« إنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة — حتى حين يفقد هذه الحياة كلها — ثم يعوض عنها تلك الجنات . وهذه المساكن فى نعيم مقيم ، وحقاً ذلك الفوز العظيم .

[١] انظر تفسير الرازى جـ ٨ ص ١٤٧ .

[٢] انظر تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ص ٣٦١ .

وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرابحة ، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة ، فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من فى السوق ، فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة ، محدودة فى هذه الأرض ، ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ماشاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع ؟ .

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، ليلة العقبة .

قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك ما شئت . فقال صلى الله عليه وسلم : (أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .

قال : فمالنا إذا فعلنا ذلك ؟ . قال : الجنة . قالوا . ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل [١]) .

وهذه المحاورة السابقة بين الرسول وابن رواحة كانت سبباً فى نزول قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو

[١] فى ظلال القرآن ، جـ ٢٨ ص ٨٧

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفوز العظيم : التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين[١] » .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذا بذلوها فى سبيله - الجنة ، وهذا من فضله وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له »[٢] .

وقال الحسن البصرى : « بايعهم والله فأغلى ثمنهم » ! .

وهناك آية ثالثة تشير إلى تجارة الإنسان مع ربه ، وهى قوله تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور - ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور »[٣] .

والله تبارك وتعالى يخبر فى هذه الآية بأن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه القرآن ، ويؤمنون به ، ويعملون بما فيه من إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى فى الأوقات المختلفة : ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، يرجون ثوابا عند الله لابد من حصوله ، ويرجون بفعلهم ذلك تجارة لن تكسد ، ولن تهلك ، وسيوفيهم الله ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، وهو فوق هذا غفور لذنوبهم ، شكور للقليل من أعمالهم ، فكيف بالكثير[١] .

وفى تلاوة الكتاب المذكور فى الآية السابقة إشارة إلى ذكر الله عز وجل ، وفى وفى إقام الصلاة إشارة إلى العبادة البدنية ، وفى الإنفاق إشارة إلى العبادة المالية ، ومعنى ذلك أنهم يجمعون بين العبادات كلها : القولية والبدنية والمالية ، وهم يعملون لوجه الله تعالى ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره زال وانفصل ، والتجارة مع غير الله بائرة مهما كانت ، ولكن تجارة هؤلاء مع ربهم لا تبور .

* * *

ونلاحظ أن الآيات التى تعرضت لذكر تجارة الإنسان مع الرحمن قد ذكرت صفات المتاجرين مع ربهم ، وإذا نظرنا إلى هذه الصفات نجدها فى بعض الآيات صفات كلية عامة ، كما فى آية : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » . وهذه الصفات هى الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله الواسعة المتعددة الجوانب بالأنفس والأموال .

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ و ١١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٩١ .
(٣) سورة فاطر ، آية ٢٩ ، ٣٠ .

(١) انظر تفسير ابن كثير ، ج ٣ ص ٥٥٤ . وتفسير الطبرى ج ٢٨ ص ١٣٢ ، طبعة الحلبى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفى بعض الآيات نجد هذه الصفات فيها صبغة التحديد والتجزئة كآية التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . » الخ فقد ذكرت الآية صفات التوبة والحمد ، والسياحة (الرحلة أو الصوم) والركوع ، والسجود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله .

وكآية فاطر : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة » إلخ فقد ذكرت التلاوة ، وإقام الصلاة والإنفاق سراً وعلانية .

ولو دققنا النظر لوجدنا أن هذه الصفات الجزئية المحدودة تعود فى الحقيقة والواقع إلى الأمرين الكليين الأساسيين وهما : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله ، أو بتعبير آخر : الاعتقاد والعمل ، والإيمان هو حافز الجهاد . فهو أساس الأسس ، ولذلك بدأت آية سورة الصف بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وقالت بعد ذلك : « تؤمنون بالله » وجاء فى نهاية الآيات : « وبشر المؤمنين » .

وفى آية التوبة جاء فى صدرها : « إن الله اشترى من المؤمنين » فذكرت صفة الإيمان وفى النهاية جاء قوله تعالى « وبشر المؤمنين » .

وحتى آية سورة فاطر فيها معنى الابتداء بالإيمان ، لأن الذى يتلو كتاب الله تلاوة المنتفع به إنما هو المؤمن الذى آمن بالله وكتابه ، ولذلك استجاب لمقتضى هذا الإيمان ولنداء هذا الكتاب فأقام الصلاة وأنفق مما رزقه الله سراً وعلانية .

ومن هنا نفهم أن أساس التجارة مع الله أمران : الإيمان والجهاد . والإيمان هو الاعتقاد الصحيح الصادق المطابق للواقع ، الذى لا يتزلزل ولا يتبلبل ، والجهاد واسع المدلول فسيح المفهوم ، فليس مقصوراً على الجهاد فى الميدان ، بل إن المؤمن يجاهد فى سبيل ربه بفكرته وكلمته ونصيحته ، ونفسه وماله ، وكل مجهود يقدمه فى أى مجال من مجالات سبيل الله ، وهى سبيل الحق والعدل والخير والإصلاح .

ونستطيع أن نعتبر « المبايعة الدينية » لوناً من ألوان التجارة مع الله ؛ لأن المبايعة فيها معنى المتاجرة والمعاقدة ، وفى الحديث « ألا تبايعونى على الإسلام » ؟ والمبايعة فى الحديث — كما يقول ابن الأثير — عبارة عن المعاقدة عليه والمعاهدة ، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه ، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره[1] .

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »[2] وقوله : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة »[3] وقوله : « يأيها

(١) النهاية لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ .
(٢) سورة الفتح آية ١٠ .
(٣) سورة الفتح آية ١٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم »[١] .

والقرآن الكريم يحذرنا من تفضيل تجارة الدنيا على التجارة مع الله تعالى ، فيقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها (أصبتموها) وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره [٢] والله لا يهدى القوم الفاسقين »[٣]

جاء فى تفسير الرازى أن جماعة قالت : كيف يمكن البراءة منهم بالكلية ، وإن هذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا وهلاك أموالنا وخراب ديارنا ، وإبقاءنا ضائعين ، فبين تعالى أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما ، وذكر أنه إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ، ومن المجاهدة فى سبيل الله فتربصوا بما تحبون حتى يأتى الله بأمره ، أى بعقوبة عاجلة أو آجلة .

والمقصود منه الوعيد ، ثم قال الله تعالى : « والله لا يهدى القوم الفاسقين » أى الخارجين عن طاعته إلى معصيته ، وهذا أيضاً تهديد [١] .

وفى تفسير المنار أن (حب التجارة التى يخشى كسادها يراد به والله أعلم — عروض التجارة التى يخشى كسادها فى حالة الحرب ، وقد كان بعض المسلمين من أهل مكة تجاراً كما ورد ، وكان لدى بعضهم شئ من عروض التجارة يخشى كسادها فى أوقات الحرب ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب فى أيام موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بمقتضى الآيات السابقة واللاحقة من هذه السورة) يعنى سورة التوبة[٢] .

وروى أن الآية نزلت بعد الأمر بالهجرة ، إذ قال العباس : أنا أسقى الحاج ، وقال طلحة ابن عبد الدار : أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر فأنزل الله الآية [٣] .

* * *

(١) سورة الممتحنة ، آية ١٢

(٢) روى أن المراد بالأمر هنا فتح مكة . انظر تفسير ابن جرير ج ١ ص ٩٩ طبعة الحلبي . وروى غير ذلك

(٣) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

(١) تفسير الرازى ، ج ٤ ص ٤١٢ .

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٧٧

(٣) تفسير الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما النوع الثالث والأخير من أنواع التجارة التي تحدث عنها القرآن ، فهي تجارة الإنسان مع الشيطان ، وبئست التجارة ؛ لأنها تجارة النفاق والضلال والإضلال ، ومحاربة الحق والعدل باللهو والباطل .

وفي هذه التجارة يقول القرآن عن المنافقين: « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » وذلك بعد قوله عنهم : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » .

والمعنى أنهم أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، كما قال ابن مسعود ، أو أخذوا الكفر وتركوا الإيمان كما قال ابن عباس ، أو آمنوا ثم كفروا كما قال مجاهد ، ويقول قتادة : « قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة » (١) .

وقد تسأل فتقول : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟ . ويجيبك الزمخشري على سؤالك هذا بقوله : « جعلوا لتمكنهم من الإيمان كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة ، فقد عطلوه واستبدلوها به ، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة » .

وقد تعود لتسأل فتقول : فما معنى قوله: « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ؟

ويعود الزمخشري إلى الإجابة : « معناه أن الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان : سلامة رأس المال والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبين معا ؛ لأن رأس مالهم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة ، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح ، وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية ؛ لأن الضال خاسر دائم ، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس مال قد ربح ، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر » (١) .

وقد جاءت إشارات إلى التجارة مع الشيطان في الآيات التالية : يقول الله تعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » ، ويقول : « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة» ويقول : « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » ، إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الآيات التي تعرض لنا صورة من من صور التجارة مع الشيطان قوله تعالى

(١) تفسير ابن كثير ، ج ١ ص ٥٢ .

(١) تفسير الكشاف ، ج ١ ص ٣٦ و ٣٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى سورة لقمان : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » .

قيل إن المراد بالشراء هنا الشراء المعروف بالثمن ، وتكون الآية قد نزلت فيمن اشترى بالفعل شيئا من لهو الحديث وباطله ليصرف به الناس عن كتاب الله وذكره ، وقد اختار الإمام الطبرى هذا قال : وأولى التأويلين عندى بالصواب تأويل من قال : معناه الشراء الذى هو بالثمن ، لأن ذلك هو أظهر معنييه » (١) .

والمعنى الثانى هو أن المراد بالمشترى هنا من يختار لهو الحديث ويستحبه ، قال قتادة : « والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن اشتراءه استحبابه ؛ بحسب امرئ من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع » .

نسأل الله أن يجعلنا صادقين فى التجارة مع الرحمن ، موفقين فى التجارة من أجل الحياة ، بعيدين عن التجارة مع الشيطان ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا إلى سواء السبيل ؟

« تم البحث »

أحمد الشرباصى

من أمثال أكثم بن صيفى ، وبزرجمهر الفارسى

الغريب من لم يكن له حبيب . القريب من قرب نفعه . الأخ مرآة أخيه . إذا عز أخوك فهن . كما تدين تدان . من مأمنه يؤتى الحذر . خير الغنى غنى النفس . لكل مقام مقال . عند الصباح يحمد القوم السرى . الصدق منجاة والكذب مهواة . خير العلم ما نفع . الصحة داعية السقم . الشباب داعية الهرم . الدال على الخير كفاعله . أنفك منك وإن كان أجدع .

أبو هلال العسكري [١]

للأستاذ علي محمد حسن العماري

هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري نسبة إلى عسكر مكرم ، وهي بلدة بالأهواز نسبت إلى مُكرَم الباهلي ، وهو الذي اختطها.

وهو تلميذ أبي أحمد العسكري ، ويقال إن أبا أحمد خال أبي هلال ، وقد اتفقا في الاسم واسم الأب ، لكن إذا قيل الحسن ابن عبد الله العسكري الأديب فهو أبو هلال.

ويبدو أن شهرة هذين العالمين لم تظهر في الآفاق إلا بعد القرن السادس ، لأن ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء يقول ، وطال تطوافي ، وكثر تسآلي عن العسكريين أبي أحمد وأبي هلال فلم ألق من يخبرني عنهما بجلية خبر ، حتى وردت دمشق في سنة اثنتي عشرة وستمائة في جمادى الآخرة ففاوضت الحافظ تقي الدين . إلخ

مع أن أبا أحمد كان عالما جليلا وكان من الأئمة المذكورين بالتصرف في أنواع الفنون والتبحر في فنون الفهوم ، ومن المشهورين بجودة التأليف ، وحسن التصنيف ، ومن كتبه كتاب (صناعة الشعر) يقول ياقوت إنه رآه ، ثم يقول ياقوت إنه بقي حتى علا به السن واشتهر في الآفاق بالدراية والإتقان ، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان ، ورحل الأجلاء إليه للأخذ عنه والقراءة عليه ، وهذا ما نقله ياقوت من كتاب أبي طاهر السلفي الذي أرشد إليه حين لقي الحافظ تقي الدين الذي تقدم ذكره - ولكن يظهر أن طول العهد بين القرن الرابع الذي عاش فيه العسكريان ، وبين القرن السابع الذي تحدث فيه ياقوت هذا الحديث ، مع بعد الديار ، عفى على ذكر العسكريين .

وقد كان أبو أحمد أبي النفس ، لا يحب الاتصال بالولاة والوزراء ، ولذلك تثاقل حين طلب إليه الصاحب بن عباد أن يلقاه ، وكان هذا الأخير شديد الرغبة في لقاء أبي أحمد حتى احتال على مؤيد الدولة بن بويه وأوهمه أن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها وفي حاجة إلى أن يكشفها الصاحب بنفسه ، فأذن له في ذلك ، فلما قرب من عسكر مكرم كتب إلى أبي أحمد كتابا يتضمن علو نظما ونثرا ، ومما جاء في هذا الكتاب :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم
ضعفنا فما نقوى على الوخدان
أتيناكم من بعد أرض نزوركم
وكم منزل بكر لنا وعوان

(١) من كتابنا (تاريخ البلاغة العربية) ، يصدر قريبا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم
بملء جفون لا بملء جفان

فرد عليه أبو أحمد معتذرا ، ثم بدا له فذهب إليه وقابله بعسكر مكرم فقربه الصاحب وعرف له حقه ، ولما مات رثاه بشعر ذكر فيه أنه لم يمت شيخ من الشيوخ وإنما فقدت (فنون الأدب) .

وإذا تذكرنا سيرة الصاحب ، وكبرياءه ، عرفنا أى مكانة كانت لأبى أحمد ، وإنما قدمنا بذكر أبى أحمد لنقول إن أبا هلال أخذ عنه علمه وخلقه ، وإن كان ضلع مع الصاحب بن عباد. ولذلك ـ كما لاحظ الدكتور زكى مبارك ـ مظهران :

الأول : إشادته بأدب الصاحب ، والثانى تحامله على المتنبى ، وكان ابن عباد يكره المتنبى كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد إلى النيل منه والوقوع فيه والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر فى استشهاده بكلامه ، وامتداحه لهذا الكلام ، فيصف معناه بأنه بديع، ولفظه بأنه شريف .

وأما تحامله على المتنبى فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح .

وتحامل أبى هلال على المتنبى هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله الوثاب فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان .

هذا ما يقوله الدكتور زكى مبارك فى ص ٩٩ ـ ٢ من النثر الفنى ، مع أنه قال فى ص ٩٦ من هذا الجزء أى قبل ذلك بصفحتين ما نصه : كان أبو هلال أبىّ النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنايا ، وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف إلى الأمراء والرؤساء ، وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكرى كان قدوة له فى ذلك ، إذ كان الصاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر فى زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات .

والذى يبدو للتأمل أن أبا هلال كان يعيب المتنبى لعقيدة فى نفسه لا لمجاملة الصاحب ، وذلك أن رأيه فى الشعر الجيد يدلنا على رأيه فى شعر المتنبى ، فهو يرى أن : أجود الكلام ما يكون جزلا سهلا ، لا ينغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه ، ولا يكون مكدودا مستكرها ، ومتوعرا متقعرا ، ويكون بريئا من الغثاثة ، عاريا من الرثاثة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا خير فى المعانى إذا استكرهت قهرا ، والألفاظ إذا اجترت قسرا ، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ، ولا فى غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد .

وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا قيل : أجود الكلام السهل الممتنع .

هذا رأى أبى هلال ، وواضح أننا لو وضعنا شعر المتنبى فى هذا الميزان لشالت كفته ، فهذا سر تحامل العسكرى على المتنبى ، وإنما سميته تحاملا لأنه أسرف فى الطعن عليه ، ولم أسمه تحاملا مجاراة لزكى مبارك ، فما أرى فى ذلك الموضع رأيه .

أما إعجابه بأدب الصاحب ، فلأنهما على مذهب واحد ، وذلك أن نثر أبى هلال يجرى على نفس الطريقة التى يكتب بها الصاحب .

ولعل أقوى دليل على أن أبا هلال كان أبى النفس ، وأنه لم يجامل الصاحب ، أن حاله ظلت سيئة ، كما حدثنا فى بعض شعره ولو كان اتصل بالصاحب لحسنت حاله ، وتأثل مالا ، إذ كان رجلا معطاء ، كثير الإغداق على من يصطفيهم من العلماء ، وقد كان أبو هلال جديراً لعلمه وأدبه بكل تكرمة ، ولكنه يقول كما روى ياقوت :

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى
دليل على أن الأنام قرود
ولا خير فى قوم تذل كرامهم
ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهم عنى رثاثة كسوتى
هجاء قبيحاً ما عليه مزيد

ويقول أيضا :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم
وحالى فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجى
وما ربحت كفى من العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى
فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم

وأعتقد أن هذا ليس كلام من يتصل بالصاحب ، ويتنكر من أجله لرأيه وعلمه ، ويظل يطعن على المتنبى دون أن ينال من الصاحب شيئا يكون كفاء لذلك الانحراف .

وقد اختلف الرأى فى ذوق أبى هلال ، فالدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى) يرى أن ذوق أبى هلال كان فاسدا ويستشهد على ذلك ببعض رسائله ، فى حين يرى الدكتور زكى مبارك أن نثر أبى هلال يعد من الطبقة العالية ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ويستشهد أيضا ببعض كلامه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد طلت النظر فى هذه المسألة ، فتبين لى أن أبا هلال يجيد القول حين يترك نفسه على سجيتها ، ويترك التكلف والتصنع وذلك يظهر فى تدوينه لآرائه العلمية والأدبية ، أما حين يكتب رسالة فإنه يلجأ إلى المحسنات البديعية ، ويجرى على طريقة ابن العميد فى التكلف والتصنع فيجىء نثره غثا باردا .

وأما حين ينقد فإنه ـ عندى ـ صاحب ذوق دقيق ، وحس مرهف .

وقد أخطأ الدكتور زكى مبارك حين عد شعر أبى هلال من الشعر الجيد ، وقد تقدم لنا مثالان منه ، وهما لا يدلان على طبع فى الشعر ، ولا على خولة فى الصياغة .

وله فى الشتاء قصيدة لا بأس بها لولا أن قافيتها فاترة والفاتر شر من البارد كما يقول أبو هلال نفسه ـ ابتدأ القصيدة بقوله :

فترت صبوتى وأقصر شجوى
وأتانى السرور من كل نحو
إن روح الشتاء خلص روحى
من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد
سرق البرد من جوانح خلو

وهذا التشبيه جيد ؛ لأنه جعل الرجل الذى يخلو قلبه من الحب ولا تلفحه حرارة الهوى أبرد من الشتاء .

ثم يمضى فى تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة فيقول إن ريحه البارده تشفى الصدور وإن غماماته الممتلئة بالماء تروى العطاش ، وأنه لا ينسى فيه تلبد الغيوم فى السماء ثم نضارة الصحو التى تعقب ذلك المنظر ، ولا الريح الجنوبية التى تبشر الأرض بالقطر ، كما يبشر العليل بالشفاء . ولا الغيوم المطرزات الحواشى بوميض البروق ، وكلما هطلت أعطتك ماء بارداً وجوا رقيقا ، ثم يصور هذه الصورة البديعة :

وترى الأرض فى ملاءة ثلج
مثل ريط لبسته فوق فرو

كما يفرح بالشتاء لأن لياليه طويلة تمكنه من الدرس المتأنى ، واللهو الكثير :

وليال أطلن مدة درسى
مثلما قد مددن فى عمر لهوى
مر لى بعضها بفقه وبعض
بين شعر أخذت فيه ونحو

فلا يمكن أن يوصف شعر أبى هلال بأنه جيد ، وإن كان هو يضعه فى طبقة أشعار المفلقين ، فكل إنسان معجب بعمله ، ويظهر ذلك الإعجاب بالنفس فى ثنايا كتاب الصناعتين فترى أبا هلال يقول ـ مثلا ـ : « ذكرت فى هذا الباب ـ وهو ثلاثة فصول ـ من نعوت البلاغة ، ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية ، وأتيت من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع ولم يسبقنى إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عارية مما هى مفتقرة إليه من إيضاح غامضها وإنارة مظلمها (١) » .

ويقول : « ولا أعلم أحداً ممن صنف فى سرق الشعر فمثل بين قول المبتدىء وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر ، والآخر على الأول غيرى ، وإنما كانت العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط نقس بما أوردته على ما تركته (٢) » .

وهذا حق ، فإنا لا نعلم أحداً قبله أطال فى شرح السرقات الشعرية إطالته ، وإنما ذكرنا هذا لندل على أن أبا هلال كان يفخر بعمله ، ولم يرد أن يبخس نفسه ، فحين يضع شعره مع شعر الفحول من أمثال أبى تمام والبحترى لا يكون ذلك دليلا على أنه من الشعراء المجيدين .

وكان أبو هلال يتجر فى الثياب ، وقد وردت فى معجم الأدباء عبارة : سألت الرئيس أبا المظفر محمد بن أبى العباس الأبيوردى ـ رحمه الله ـ بهمذان عنه ، فأثنى عليه ووصفه بالعلم والفقه معا ، وقال : كان يبرز احترازا من الطمع والدناءة والتبذل .

وقد قال المعلق على (يبرز) لعله (يتبزز) من البز وهو الثياب يعنى أنه يتجمل ويظهر للناس ذا بزة حسنة ولبسة تدفع عنه التبذل ، فلا يزال الناس فى كل عصر يكرمون الرجل ويجلونه لحسن بزته وهيئته وجمال شارته ولبسته .

قلت : هى يتبزز ، ولكن ليس معناها كما فهم هذا المعلق ، وإنما معناها أنه كان يتجر فى الثياب ، لئلا يضطر للسؤال أو للارتماء فى أحضان أحد من ذوى الجاه واليسار فيوصف بالطمع والدناءة والتبذل . وكيف يتفق فهم هذا القائل مع قول أبى هلال : (ويهجوهم عن رثاثة هيئتى) ؟

وقد ترك أبو هلال من الكتب غير الصناعتين : ديوان المعانى . جمهرة الأمثال التبصرة . قال ياقوت : وهو كتاب مفيد ، كتاب شرح الحماسة ، كتاب الدرهم والدينار ، كتاب المحاسن فى تفسير القرآن خمس مجلدات . كتاب العمدة ، كتاب فضل العطاء على العسر . كتاب ما تلحن فيه الخاصة ، كتاب أعلام المعانى فى معانى الشعر ، كتاب الأوائل ، كتاب ديوان شعر ، كتاب الفرق بين المعانى كتاب نوادر الواحد والجمع ، رسالة فى العزلة والاستئناس بالوحدة ، كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة ، كتاب التلخيص .

أما وفاته فالمشهور أنه توفى سنة ٣٩٥ هـ ولكن الحموى يقول : وأما وفاته فلم يبلغنى فيها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصنيفه : وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلثمائة .

كتاب الصناعتين :

الكتاب كما يؤخذ من عنوانه كان الغرض

(١) الصناعتين ص ٥٤ ط . الحلبى
(٢) ص ٢٣٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

منه تعليم الكتاب صناعتى النثر والنظم وهو يقول فى ختامه : « على أن هذا الكتاب جمع من فنون ما يحتاج إليه صناع الكلام ما لم يجمعه كتاب أعلمه » .

وقد بدأه بالحديث عن فنون القول فذكر البلاغة والفصاحة وفرق بينهما وسرد بعض أقوال العرب والفرس ثم تكلم عن التشبيه والاستعارة ، والإيجاز والإطناب ، وذكر من البديع خمسة وثلاثين نوعا .

ويبدو أنه قرأ ما كتب العلماء قبله فى البلاغة والنقد ، وأنه استفاد من كل ما كتب غير أنه يذكر فى نهاية الكتاب أن كل شىء استعاره من كتاب ووضعه فى كتابه لم يخله من زيادة تبيين ، واختصار ألفاظ وغير ذلك مما يزيد فى قيمته ويرفع من قدره .

ولعل أشهر الكتب التى طالعها واعتمد عليها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ فقد ذكره فى المقدمة وقال : إنه كتاب كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة . لكن عابه بأن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .

فتصميم أبى هلال - كما يفهم من كلامه هذا - كان على أن ينظم المسائل البلاغية وألا يجعلها ضالة بين الأمثلة ، ومن هنا قال أحد النقاد المحدثين إن كتاب الصناعتين هو نقطة تحول النقد إلى بلاغة [1] ولعل هذا القول فيه كثير من الصواب ، وفيه بعض الحيد عن الجادة ، وذلك أن هناك عالمين آخرين سبقا أبا هلال إلى هذه المحاولة هما عبد الله بن المعتز وقدامة بن جعفر وقد علمت عملهما فى البلاغة ويمكنك أن تدرك أنهما جريا شوطا غير قصير فى هذا الشأن .

وقد زاد فى البديع على ما أورده المتقدمون ستة أنواع وهى : التشطير والمحاورة والتطريز والمضاعف والاستشهاد والتلطف .

وجعل الاستعارة ، والكناية والتعريض من أنواع البديع - كما فعل من سبقوه - فى حين أخرج السجع منه . أما التشبيه فإنه أخرجه من البديع .

وذكر المطابقة فعرفها ومثل لها بما يدخل فيها النوع الذى سماه المتأخرون المقابلة أما هذه عنده فهى إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله فى المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة ، فأما ما كان منها فى المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل ، مثاله قول الله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم ، ونحو قوله تعالى : « ومكروا مكرا ومكرنا

(١) هو الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ص ٣٢٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مكرا ، فالمكر من الله تعالى العذاب جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته . . . وهكذا . فهى غير المقابلة المعروفة فى كتب المتأخرين .

وهو يذكر اللون من ألوان الكلام ، ويعرفه ، ثم يذكر الغرض منه ، ويجىء بعد ذلك بأمثلة يبين فى بعضها وجه روعة هذا اللون ، فمثلا بدأ باب الاستعارة بقوله : الاستعاره : نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا .

ثم يذكر بعدذلك فضل الاستعارة فى بعض روائع الكلام . وقد يبعد عن الرسم الذى رسمه ، فهو يذكر فى باب الاستعارة التشبيه المحذوف الأداة من مثل قوله تعالى : «وأفئدتهم هواء» ، وقول سيدنا على : السفر ميزان القوم ، وقول معاوية : العيال أرضة المال . فى حين أنه ذكر فى باب التشبيه أن الأداة قد تحذف ، ومثل لذلك بقول امرئ القيس .

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ويقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنانير
وأطراف الأكف عنم

ويجعل منه التشبيه الذى يكون الشبه به فيه مصدراً مبينا للنوع كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

غير أن أكثر أمثلة التشبيه التى ذكرها وهى كثيرة مذكورة الأداة .

كما أدخل فى التشبيه بعض أمثلة الاستعارة ومن ذلك .

وأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

قال : فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء فى بيت واحد ، الدمع باللؤلؤ والعين بالنرجس والخد بالورد والأنامل بالعناب لما فيهن من الخضاب ، والثغر بالبرد . ثم قال : ولا أعرف لهذا البيت ثانيا .

وبيت امرئ القيس (أيطلا ظبى) من باب الاستعارة . لا التشبيه ونستنتج من كل ذلك أن هذه الأنواع لم تكن واضحة كل الوضوح فى ذهن أبى هلال .

ومما لا شك فيه أن العسكرى استفاد من كل ما كتب قبله وأتيح له أن يطلع عليه فالكتب التى ذكرها فى كتابه ، أو ذكر أصحابها لها أثر ظاهر فى الكتاب لا شك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى إفادته منها ومن ذلك ـ بعد كتب الجاحظ ـ كتاب (النكت) للرمانى فإنه (يعتبر أحد الروافد الهامة التى مدت كتاب الصناعتين فلا يكاد يخلو باب من أبواب كتاب الرمانى إلا له أثر فى الصناعتين) (١) وكتاب (مشكل القرآن) لابن قتيبة فقد نقل عنه فى كتابه ، وكتاب (البديع) لابن المعتز وكتاب (نقد الشعر) لقدامة . غير أن العسكرى لم ينص على ما أخذه من هذه الكتب ، ويبدو أن هذه طريقة القدماء ، فإن الشيخ عبد القاهر — مثلا — يشير إلى اعتراضات كثيرة ويجيب عنها ولا يذكر أصحابها ، والسكاكى يقول : إن القسم الثالث من كتابه المفتاح هو ما أمكن تلخيصه من كلام السلف ، ولا يكاد يذكر إلا النزر اليسير من هؤلاء السلف .

ومع إفادة العسكرى ممن سبقه من العلماء اعتبر ما كتبوه فى البلاغة غير ذى بال ، وذلك حيث يقول فى مقدمة الصناعتين بعد أن نبه على خطأ كثير من علماء العربية فى الاختيار ورمى بعض ما استحسنوه بأنه كلام فج غليظ ووخم ثقيل ، وبعضا آخر بدناءة اللفظ وخساسته ، وخلوقة المعرض وقباحته ، قال بعد ذلك : « فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة ... فرأيت أن أعمل كتابى هذا » .

وقد اتفق الذين ترجموا لأبى هلال على أنه كثير الحفظ ، وقد ظهر أثر ذلك فى كتابه فإنه يذكر النوع البلاغى ثم يغرقه بفيض من الأمثلة من القرآن ومن الحديث ، ومن نثر العرب وشعرهم .

ثم يأتى عقب كل باب فيذكر الردىء من هذا النوع ، ويبين موضع الرداءة فيه .

وله نظرات صائبة فى النقد الأدبى ، وقد تنبه أبو هلال إلى أثر البيئة فى تقارب الأفكار ، فقد ذكر أن عمر بن أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

تشط غدا جار جيراننا

فقال ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك

ثم قال أبو هلال : وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة .

على محمد حسن العمارى

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى للأستاذ زغلول سلام ص ٣٢٣ .

علم من أعلام الأدب العربي :

أبو بكر الخوارزمي

للأستاذ عباس طه

نشأته وسيرته :

هو الأستاذ الكبير والعلامة الخطير قبس الحق وظهيره ، وظهير الأدب وظهره ، ومن علق ذكره بمناط الجوزاء وحف اسمه بأبواب السماء أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الذي لا يحاول ولا يطاول والناثر الذي لا يبارى ولا يجارى ، يلقب أيضاً بالطبرخزمي ؛ لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان وهو ابن أخت العلامة الثبت الثقة أبو جعفر بن جرير الطبري إمام المبرزين في علوم القرآن والتاريخ .

ولد أبو بكر الخوارزمي سنة ٣١٦ هـ بخوارزم ، فلما اشتد ساعده نزح إلى الشام وأقام في حلب فترة طويلة من الزمن ثم طفق يجوب الأقطار ويقتحم الأمصار ويطوف الديار من الشام إلى أقصى خراسان .

كان أبو بكر الخوارزمي رجلا مبرزاً في حلبات الأدب العربي ، إن شئت فقل إنه من ذؤاتها .

كتب الكتاب ونثروا في قوم أشادوا بهم ورفعوهم من مسابح الأسماك إلى مدار الأفلاك بل من التراب إلى السحاب بل من مقر الرغام إلى مجرى الغمام وليسوا على قدم المساواة لأبي بكر الخوارزمي .

ومن العجب أن يكتب الكاتبون من إخواننا رسائل متفرقة في أدباء هم أقل من أبي بكر شأناً ، ويهملوا أبا بكر الخوارزمي فلا يكتب عنه كاتب من المحدثين ، أو يفتحوا له صفحات من الجحد أحرزه طيلة حياته ، وقد أغفله حساده ومناجزوه ، ليظل في التاريخ مجهولا وفي عالم الأدب مغموراً .

كان صاحب الترجمة معروفا بقوة الحفظ في النثر والقريض ، يقص علينا الأدب العربي أنه قصد ذات يوم الصاحب بن عباد بأرجان فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه : أبلغ الصاحب أن بالباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول عليك فدخل الحاجب فأعلمه . فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي من الأدباء إلا من يستظهر عشرين ألف بيت من شعر العرب . فخرج إليه الحاجب فأعلمه . فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أم من شعر النساء . فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال . فقال الصاحب : هذا لا يكون إلا أبا بكر الخوارزمى . فأذن له فى الدخول ، فدخل عليه وانفرجت له أسارير وجهه .

كان معروفا بحسن الصياغة وأداء الأمانة فيما يكتب وجزالة العبارة . كانت له مدرسة واسعة الأكناف مترامية الأطراف ، له رواد وله حساد ، وكان فى مدرسته يتخير الأنجاب من أبناء المياسير ويلقنهم أطرافا من العلم والأدب الرفيع حتى نبه ذكره بين معاصريه وضربت إلى شهرته آباط المطى ، يلمس ذلك كل من يقرأ رسائله إلى الأمراء فى عصره ، وإلى أبنائه النوابغ فى قرنه ، وإلى أصحاب المكانة السامية فى جيله ، وإلى من يقرأ حكمه وأمثاله التى ارتفعت فوق مستوى أهل عصره وبلغت من السمو مكاناً قصيا .

وأى رجل دارت لمقالاته أفلاك البلاغة ، وهتفت به العواتك فى خدورهن ، وسرى ذكره مسرى الهواء العليل أكثر من أبى بكر الخوارزمى ، حتى قال عنه العلامة الكبير وحيد دهره ، وفريد عصره الأستاذ أبو منصور الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر : « أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى باقعة الدهر وبحر الأدب وعلم النثر والنظم وعالم الفضل والظرف كان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ويتكلم بكل نادرة ، ويأتى بكل فقرة ودرة ، ويبلغ فى محاسن الأدب كل مبلغ ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ونعومة نعمته وبراعة جده وحلاوة هزله » انتهى .

ظاهر من كل ذلك أن أبا بكر الخوارزمى قد بلغ رتبة شاب الزمان وجدها فتى ، وأخلق العالم وذكرها طرى ، إن حاضر أرهف الآذان واقتحم القلوب بلا استئذان ، ألفاظ كغمزات اللحاظ ومعان كأنها فلك عان ، وعبارات كأنها فى عيون الكواعب عبرات ، وفقرات تستنزل البلاغة من سمائها ، والمعانى من صياصيها ، قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ، فغابت العقول عن هواها ، ووقفت بالنفوس الجامحة دون مرماها ، تسابق النظر إلى مواطن العلم فلا يكاد يلحظها الوهم إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام .

يزدهى المنبر عجبا حين يرقاه خطيبا
أترى ضم خطيبا أم ترى ضمخ طيبا

ولا والله ما اليوث الضوارى أزعجها الطوى من آجامها ، وأثارها على الفريسة ضنى أشبالها بأسرع عدوا ولا بأعنف ضراوة وفتكا من قلم هذا الرجل إذا خشى على الأدب أن تستباح حرماته أو أشفق من زائف القول أن تعشو الأبصار ظلماته .

له القلم الأعلى الذى بشباته
تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

وكان رجلا غضوباً لكرامته ، معتزاً بهمته إن رضى متح فأروى وإن غضب قدح فأورى .

حدث أنه ذهب ذات يوم إلى الصاحب بن عباد لزيارته فقال له حاجبه : إنه خارج بيته الآن فارتاب أبو بكر الخوارزمى فى هذا النبأ ثم سلمه بطاقة ليرفعها إلى الصاحب وقد جاء فيها :

« زائركم يشكو وقد جاءكم
غلظة بوابكم الخادم
أنكركم عنى على زعمه
فياله من عجب دائم
لأننى بين بنى آدم
مذ خلقوا أشهر من آدم

كان والله السهم المسدد إذا غضب، وحلاوة العسل المصفى إذا رغب ، إن شاء فهو العسل حلاوة أو الديباج لينا وطراوة ، وإن شاء فهو النمر إستشراء وضراوة ، إن شاء فهو الماء نميرا أو الزهر عبيرا وإن شاء فهو النمر سعيرا أو النار توهجا وزفيرا ، إن شاء فهو اللبن خالصاً سائغاً يخرج من بين فرث ودم ، وإن شاء فهو المر النقيع والعلقم ، وكذلك كل من يشعر بالكريم من الحياة يحمل بين فكيه لسانا إن سالمته سال عذبا ، وإن صارمته سل عضبا ، كالطبيب الحاذق يكلم بيد ويأسو بأخرى ، أو كالنحل إن رضيت عملت العسل ، وإن غضبت أعملت الأسل، أو كالبحر إن صدم أغرق، وإن جاد بجواهره أغدق ، فأحيانا يقذف لراكب متنه درآ وأحيانا يفتح له الموت فيه بين كل موجتين قبرا، أو كالمطر فيه خير وشر وفيه نفع وضر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا، وتشرب منه الأفاعى فيعقب سماً ، إن هطل على الوادى الجديب أجاده ، وإن زخ على الوادى الخصيب أباده

ولى فرس بالحلم للحلم ملجم
ولى فرس بالجهل للجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوم
ومن شاء تعويجى فإنى معوّج
وبالجهل لا أرضى ولا هو شيمتى
ولكننى أرضى به حين أحرج

وكان أبو بكر الخوارزمى يستكثر من الأصدقاء حتى وإن انقلبوا له أعداء ، ويفر من الحمق الجهلاء حتى وإن كانوا عليه أسخياء هاجم المتنبى فى صولته ، وناجزه فى دولته ، واتفق أن وجد له حامين لظهره من مكائد أبى الطيب فغالبه ثم غلبه ، وكان يسخر من تزمت أبى العلاء وانقباضه عن الدنيا فى يأس

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقنوط، ونظره إليها فى جانبها المعتم، وإعراضه عنها فى جانبها المشرق المضىء. وكان يتجهم للشريف الرضى هجاه يوم ذهب إلى الوالى فى عصره، وكان يملك ضيعة صغيرة فطلب إلى الوالى أن يشتريها منه للمنافع العامة للمسلمين وأن ينقده ثمنا مبهظا فأطلق الألسنة فيه بمقالة السوء فأحفظ عليه صدور الأدباء.

وإلى القارئ ملحة من ملحه صاغها فى تصوير المتنبى، ثم قارن بين قوله وعمله، وبين طمعه وأدبه فى شعره، وبين جزالة قصائده والاقتنان بالغنى وما فى يده، قال: «ونظرت إلى أبى الطيب المتنبى وإلى تناقض حكمته، وتفاوت طرفى فعلته حيث قال فى سيف الدولة

لا تطلبن كريما بعد رؤيته
إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

ثم قال فى كافور الأخشيد:

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا، وحال ضباب الحرص والرجاء بينه وبين العهد والوفاء، وكان يضايق نفسه فى اختيار المتاع ويسامحها فى إختيار المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة على عرض من لا يساوى بعرة ويهب كريمة من كرائم شعره إلى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع فى جحر فأر لدخله، ولو أتاه الدرهم من إست كلب لما غسله، فلاجرم أن الناس كما استحسنوا قوله استهجنوا فعله، وكما أعجبوا بشعره تعجبوا من غدره، يشكر ثم يشكو ويمنح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته، وكم من حر فضله ثم ثلبه، وكم من عرض كساه ثم سلبه، وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها!.

ثم أشاد أبو بكر بنفسه ليوازن بينه وبين المتنبى فقال:

ولكن فى قميص أبى بكر رجل إذا أعطى لم يرتجع، وإذا طلق لم يراجع، وإذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، وإذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، وإذا طيب فكه بالمدح لكريم لم يلطخها بمدح للئيم، وإذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرجن إلا لديه ويجتلين غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال النكران وجذبها إلى شق النسوان» انتهى.

فالإمام الخوارزمى يعتب ثم يعزى ثم يهنىء ثم يكافئ على صنائعه بالمدح ويلوم على قبائح غيره بالقدح.

كان له تلميذ من أنجب تلاميذه وأنبههم ذكرا وقد اتفق أن جمعه مجلس بأحد الأدباء فجرى بينهما حوار وكان لهذا الأديب فى

(البقية على صفحة ٣٤٤)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وينبغي أن نعتبر الدين، هو المحرر الأصيل للعقل البشري . لقد هزه من الأعماق ، وانتزعه من كل استرقاق :

« إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا .

كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » !!

« وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا ! .

ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً !! »

« وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » !!

ويطالب بإلغاء كل تبعية . . بالتفكير في كل علاقة وارتباط . . ولو كانت العلاقة بالكبير المتعال :

« قل إنما أعظكم بواحدة .

أن تقوموا لله مثنى ، وفرادى ثم تتفكروا »

هذا هو الدين . . في تكريمه للعقل ، وتقديسه للحرية !

وهذه هي ملة أبينا إبراهيم . . . بها نفخر ونتيه :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي

والذين آمنوا

والله ولي المؤمنين » ؟

فتحي عثمان

(بقية المنشور على صفحة ٩٣٣)

المجلس أنصار ، فكتب الخوارزمي إلى تلميذه يقول :

« أي بني ، بلغني أنك ناظرت فلما توجهت إليك الحجة كابرت ، ولما وضح نير الحق على عنقك ضجرت أو تضاجرت ، وكنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه ، وأهيب لحجاب العدل والإنصاف من أن تخرقه ، وكأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز ، وأن وجه الظلم مبرقع بالقبح وأنك إذا استدركت على نقد الصيارفة وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة ، فقد أضفت عيبا إلى عائبك وملكته لمناصبك ونصرت عدوك على صاحبك ، وقد عجبت من حسن ظنك بل وأنك إنسان والله المستعان » اهـ .

عباس طه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كرامة العقل، وقداسة الحرية من رسالة الإسلام

للأستاذ فتحي عثمان

« ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » .

لم يعد جديدا أن يقال : إن الإسلام هو رسالة الحرية، وإن محمدا عليه الصلاة والسلام هو رسول الحرية ... والكثيرون يعرفون عن الإسلام : أنه رسالة الحرية السياسية للأفراد والشعوب ، وقد يعرفون أنه رسالة الحرية الاجتماعية للأفراد والشعوب .

غير أن هذه الحريات جميعا تتأسس على حرية أخرى أجل وأخطر ، هي حرية الفكر .. وهيهات لمن لم يتحرر من (داخله) أن تتحقق حريته !! ولو خلص من أية ضغوط من (الخارج) عليه ، فستجلب عليه (هزيمته الداخلية) مزيدا من الضغوط .

ومن هنا كان لا بد أن تتقرر أساسا كرامة (الإنسان) ، في (العقل) الإنساني والبداية الصحيحة للطريق أن يعامل هذا العقل بالتكريم .

وكان لا بد أن تتقرر أساسا قداسة الحرية في (العقل) الإنساني .. والبداية الصحيحة للطريق أن تعرض أخطر المقدسات على الإرادة الإنسانية وتكون لها حرية الاختيار .

وقد كان دين الله بوجه عام والإسلام بوجه خاص مقررا لكرامة العقل ولقداسة الحرية في وضوح ، وقد سلك الطريق الصحيح لهذا التقرير .

غير أن الدين مظلوم عند الناس بالنسبة لحرية الفكر ... أفليس الإيمان إذعان وانقياد وتسليم ؟؟ أفليس الإيمان : استهواء وإيحاء وتقليد وإكراه كما يقال في بعض الأحايين. والدين الحق براء من هذا الافتراء .

إنه يقرر كرامة الإنسان بآيات من وحي الله ذي الجلال والجبروت :

« ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويقرر كرامة العقل الإنسانى بجعله مناط الحكم و التقدير فى أى قضية ، ولو كانت قضية الألوهية والدين : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » .

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

« أفلا يتذكرون . . أفلا يعقلون . . إلخ.

ويعرض الدين قضية الإيمان بالله واليوم الآخر وهى أقدس وأخطر قضاياه على العقل الإنسانى ، وعلى الإرادة الإنسانية ، وفى هذا تقرير حريتها فى الاختيار ، وتقديس لحريتها فى الاختيار :

«أم خلقوا من غير شىء، أم هم الخالقون ؟»

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » .

« لو كان فيها آلهة إلا الله ، لفسدتا » .

وهو ينفى عن العقل الإنسانى أى ضغط، وعن الاختيار الإنسانى أى تأثير :

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ؟ .

« فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

« إن عليك إلا البلاغ » .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ! .

* * *

ومن روائع الدين فى هذا المجال ، هذا النمط الفذ من العرض العقلى لقضية الإيمان على لسان إبراهيم أبى الأنبياء ، عليه وعليهم الصلاة والسلام . .

ومن روائع ابن حزم، أنه يقرر فى كتابه (الأحكام) انتصاراً للجدال والمحاجة فى قضايا الدين ، أن الله علمنا كيف نجادل ونحاج ، وعلمنا الحجة على (الثنوية) وعلى (الدهرية) وغيرهما . . وساق لنا مثلا للحاجة على لسان إبراهيم ، وألزمنا الاقتداء به إذ كنا على ملته . . « ملة أبيكم إبراهيم » . وإبراهيم أبو الأنبياء ، هو داعية « عقيدة التوحيد » ، وداعية « العقل والحرية » فى الوقت نفسه . .

إنه من أول الطريق . . يفكر ، ويقلب الأمور أمام (العقل) :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين.

وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين .

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى . . فلما أفل ، قال: لا أحب الآفلين!

فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين !

فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى ، هـذا أكبر فلما أفلت ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون ! .

إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين .

وحاجه قومه .

قال أتحاجونى فى الله وقد هـدانى ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ .

وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا؟ فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون؟

الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

وتلك حجتنا آتيناهـــا إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » !!

عرض رائع

ومنطق سليم

وإبراهيم لا يلجأ إلى (اليـــد) إلا ليستثير (العقل) :

ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين .

إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لهـا عاكفون » ؟؟

قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين!

قالوا : أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين ـ

قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جـــذاذا إلا كبيرا لهم ، لعلهم إليه يرجعون !!

قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين.

قالوا : سمعنا فتى يذكرهم ، يقال له إبراهيم !.

قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون.

قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ! ! فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ! !

ثم نكسوا على رءوسهم : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ! !

قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ، ولا يضركم . . أف لكم ولما تعبدون ـ من دون الله ، أفلا تعقلون ؟؟ قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنـا : يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين » !.

« فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليـــه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون ؟ والله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خلقكم وما تعملون ! قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » ! !

إنها تجربة مثيرة . . دلائلها كثيرة ، فى مجال دراسة السلوك الاجتماعى

وهى محاولة نبيلة . . لإبراز التناقض القائم ، واستثارة العقل من الرضوخ والتسليم للمتناقضات وهى (حركة يد) . . غايتها (حركة الذهن) .

فلما تحركت الأذهان ، أوجعها الدرس وأخذها الكبر . . ففزعت إلى اليد ، يد العدوان والتحريق ، لا يد الاختبار والتجريب ! .

وإبراهيم يحاج ربه . . كما يحاج الناس ويطلب منه الدليل والبرهان ! .

والله يسوق إليه المثل . . فى تجربة :

« وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟

قال : أولم تؤمن ؟

قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى

قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » !

ومن هنا كانت حجة إبراهيم قارعة قاطعة أمام الناس . . إنه اقتنع قبل أن يقنع ، ودرب عقله على الفروض والاحتمالات ، قبل أن يواجه عقول الناس ، وتقرر على ذلك الإقرار والتأييد !! إنه يناقش (ملكا) منتفشاً بالسلطان والطغيان ، وتقرر فى ذهنه حقه المقدس فى أن يطلب البرهان ، وتلقى من الله حقه « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه — أن آتاه الله الملك (!!) »

إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت

قال : أنا أحيي وأميت !

« قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب

فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » ! !

إن إبراهيم يسحق بقوة المنطق قوة الطغيان .

ويسخر من الذى ينصب نفسه لمجرد أنه يتربع على كرسى العرش ويستطيع أن يقيم المشانق أو يشدخ الرءوس بالسيوف ! ! يسخر إبراهيم من هذا الملك الصغير ، الذى يزعم أنه يحيي ويميت فى عالمه الضئيل ، بأن ينقل محور الجدل إلى العالم الكبير . . الكون الفسيح بأجرامه وأفلاكه ، بهيئته وحركته . هنا يتهالك الأقزام !!

* * *

ينبغى أن نفخر حقاً ، بأن كنا على ملة إبراهيم . .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وينبغي أن نعتبر الدين، هو المحرر الأصيل للعقل البشري . لقد هزه من الأعماق ، وانتزعه من كل استرقاق :

« إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا .

كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » !!

« وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا ! .

ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً !! »

« وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » !!

ويطالب بإلغاء كل تبعية . . بالتفكير في كل علاقة وارتباط . . ولو كانت العلاقة بالكبير المتعال :

« قل إنما أعظكم بواحدة .

أن تقوموا لله مثنى ، وفرادى ثم تتفكروا »

هذا هو الدين . . في تكريمه للعقل ، وتقديسه للحرية !

وهذه هي ملة أبينا إبراهيم . . . بها نفخر ونتيه :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي

والذين آمنوا

والله ولي المؤمنين » ؟

فتحي عثمان

(بقية المنشور على صفحة ٩٣٣)

المجلس أنصار ، فكتب الخوارزمي إلى تلميذه يقول :

« أي بني ، بلغني أنك ناظرت فلما توجهت إليك الحجة كابرت ، ولما وضح نير الحق على عنقك ضجرت أو تضاجرت ، وكنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه ، وأهيب لحجاب العدل والإنصاف من أن تخرقه ، وكأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز ، وأن وجه الظلم مبرقع بالقبح وأنك إذا استدركت على نقد الصيارفة وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة ، فقد أضفت عيبا إلى عائبك وملكته لمناصبك ونصرت عدوك على صاحبك ، وقد عجبت من حسن ظنك بل وأنك إنسان والله المستعان » اهـ .

عباس طه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما يقال عن الإسلام

دور الإسلام فى مستقبل القارة الافريقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

للإسلام حصة بارزة - لا تزال - فى كل كتاب حديث يصدر من المطابع الأوربية أو الأمريكية عن القارة الإفريقية . وقد تنوعت موضوعات هذه الكتب على الزمن وتنوعت معها وجهة البحث فى المسائل الإسلامية .

فى الفترة الأولى منذ ابتداء العناية بهذه القارة قبل نحو السنوات العشر كانت الموضوعات كلها - أو أكثرها - متجهة إلى الإحصاء وجمع المعلومات العامة عن السكان وموارد الرزق وينابيع الثروة وتقسيمات المواقع وتسجيل الظواهر الجغرافية والاستعمارية ، وكأنما كان المؤلفون يفكرون فى الناحية التى يستفيد منها المسيطرون من الخارج وهم يديرون حكومات البلاد أو يملكون أزمة الحكم ووسائل السيطرة والاستغلال فيها .

فلما تقررت فى الأذهان فكرة الاستقلال الوطنى أصبحت إرادة الإفريقيين بين حاكمين ومحكومين هى الناحية التى تتجه إليها أنظار المؤلفين ، وأصبحت إرادة الأجنبى تبعا للإرادة الوطنية فى تحصيل المعلومات والتعليق عليها بعد قيام الحكومات المستقلة وتركيز السلطان فيها على العوامل النفسية والاجتماعية التى ترجع إلى أبناء البلاد أولا ثم ترجع بعد ذلك لمن يحسن فهمها والانتفاع بها من أصحاب السياسات الأجنبية .

وقد أسفر هذا التنويع فى موضوعات التأليف عن وجهتين من وجهات البحث المخصص للمسائل الإسلامية ، وهما :

أولا : دور الإسلام المنتظر فى إقامة نظم الحكم بعد استقلال الأمم الإفريقية .

ثانيا : معنى انتشار الإسلام قديما وحديثا بين الإفريقيين باعتباره حركة من حركات التاريخ ، والاستطراد من ذلك إلى استطلاع مصير هذه الحركة بين حركات الحضارة أو الحضارات العصرية .

وفى أكثر من بحث هام يميل المؤلفون إلى ترجيح فرص الإسلام على فرص العقائد الأخرى - دينية كانت أو اجتماعية - فى توجيه

دفة الحكم واتخاذ السند الموافق للأنظمة الإدارية أو الدستورية التي يختارها الإفريقيون حيثما توقف الأمر على تقاليد المسلمين أوقواعد الإسلام كما يفهمونها هناك.

فى كتاب إفريقية الاستوائية ، وهو كتاب ضخم فى مجلدين تزيد صفحاتهما على مائة وألف صفحة ـ يقول الأستاذ جورج كمبل Kimble رئيس قسم الجغرافية بجامعة أنديانا ـ « إنه من المشكوك فيه أن تكون الأنظمة الغربية القائمة على النفاذ والجد ، ملائمة لمطالب الثقافة فى بيئة يغلب فيها أن يكون السبق للماكر لا للسريع ، والفوز فى المعركة للخفيف فى العمل لا للقوى فى الخلق ، حيث لا معنى لكلمة الفساد والرشوة لأن كل خدمة تعطى تتبعها فائدة تؤخذ ، ويسود الشك على العموم فى جدوى المطابقة بين النظم المحلية والنظم الغربية ، ولا يخلو مكان من فكرة الحيدة بين الكتلتين الغربية والشرقية ، إذ يعتقدون أن الأمة يستحيل أن تحكم نفسها إذا هى كانت متعلقة بأخلاق الأمم الأخرى ولغاتها وعقائدها ، ولا يقتصر النفور هنا على كراهة السير على المنهاج الغربى ، بل يتعداه إلى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الإفريقى والظروف الأفريقية ، مع تفضيل الإسلام ـ لتسليمه بمواطن الضعف الإنسانى وإغضائه عن فوارق الألوان ـ على المسيحية بما تدعو إليه من الدقة وما تشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة فضلا عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة والعلم بأنها تكون فى موضعها صحيحة مألوفة كلما تسربلت بسربالها الفضفاض الذى لا يضيق حتى يشبه كسوة الشغل فى المصنع ، وهى على هذا — تصر على التشبث ببعض القيم التى احتواها النظام الاجتماعى القديم بروابطه العائلية وشعائره المتبعة وإجراءاته القضائية وسائر فنونه التى لا يعلى عليها ويكاد الرجل الأبيض نفسه ألا يرتفع إلى أوجها » .

يقول المؤلف ذلك فى الصفحة الـ (٤٢٦) من المجلد الثانى ، ولكنه يقرر فى الصفحة الـ (٢٧٦) من المجلد نفسه كلاما ينقض هذا الكلام فى فحواه إذ يقول: إنه على نقيض الحالة بالنسبة إلى المسيحية يشاهد « أن الإسلام كان له أثر ضعيف فى الوطنية الإفريقية وهو مع ضعفه الشديد سلبى لا ايجاب فيه ، لأن المثال المميز للحكومة الإسلامية ، كما يقول جورج كاربنتر إنما هو مثال الحكم الشخصى المطلق مستندا إلى ولاء الجماهير قائما على قواعد الدين ، وعلى الخوف والرهبة ، وسلطان الحكم العسكرى ، ولا ملاءمة بين هذا المثال وبين تركيب النظام الادارى المتشابك وتعدد الكفايات الفنية التى تتطلبها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأعمال المنوعة فى الأمم العصرية ، إذ ليس فى وسع هذا المثال أن يخلق ولاء للوطن يرتفع به فوق منازعات العقيدة والأفكار المختلفة ، ولا أن يهيئ آمال الفتاة الزعماء المنتظرين وضمان الأمان الأكفاء من الموظفين » .

* * *

ويرد هذا البحث فى كتاب ضخم آخر عن شبه جزيرة « سيراليون » يقع فى أكثر من سبعمائة صفحة ويقول مؤلفه كريستفور فايف Cristopher Fyfe فى متفرقاته :

« إن تعاليم البعوث التبشيرية المسيحيه على خلاف تعاليم الإسلام — تهدم الاستقلال الذاتى فى الإفريقى وتعطل تصرفه المطبوع والحل الذى يقترحه بلايدين Blyden هو إقامة جامعة خاصة بإفريقية الغربية تسند فيها وظائف التعليم إلى إفريقيين من نصفى الكرة ومعهم إفريقيون مسلمون من داخل القارة لتنشئة الطلاب على سليقتهم والابتعاد بهم عن محاكاة المثل الغربية » .

* * *

أما البحوث التى تعرض لتفسير معنى انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية باعتباره حركة من حركات الأمم فى التاريخ العالمى فهذه أمثلة منها :

يرى باتين Batten فى سلسلة كتبه ، عن أواسط إفريقية أن انتشار الإسلام بين الإفريقيين — إذا روجعت أسبابه جميعا — إنما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة لم تكن فى العالم حضارة تضارعها أو تقوى على مغالبتها وأن وصول الإسلام إلى القارة الإفريقية كان ملازما لوصوله إلى القارة الأوربية نفسها وامتداده إلى الأقطار البعيدة من القارة الآسيوية وقد كان امتياز حضارته سببا كافيا لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذى يصل إليه العربى المطبوع على الترحل والسياحة ، يعينه على مطاوعة هذه النزعة أنه اقتبس كل ما يقتبس من اليونان والأمم القديمة من علوم الجغرافية والفلك وزاد عليها حب الكشف الذى سرى إلى جميع المسلمين مع سريان الشوق إلى زيارة مكة ومعاهد الإسلام الأولى.

« وبينما كان الأوربيون يعولون على السحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ويحسنون الانتفاع بكثير من العقاقير ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الأطباء فى علاج بعض الأمراض إلى هذه الأيام » ...

ومثل هذه الحضارة لا سبيل إلى حصرها فى بقعة محدودة من العالم مع إقدام العربى على احتمال الجهد والخطر ورغبته فى الرحلة والارتياد . فانتشار الإسلام إنما هو فى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حقيقته انتشار حضارة جديدة بالانتشار وهو حركة من حركات التوسع الأممى تبعثها دواعى النشاط التى تمهدها المعرفة وتشحذها العقيدة التى تسود الدنيا لأنها لا تبالى أن تقتحمها ولا تكترث لفراقها .

* * *

ومن أحدث المؤلفات عن إفريقية تاريخ موجز للقارة ألفه كاتبان لهما خبرة حسنة بالشرق من طريق الدراسة ومن طريق السياحة والمعاشرة ، وهما رولاند أوليفر وجون فاج Fage وهما يفصلان بين دور الفتح الإسلامى ودور التغلغل الإسلامى إلى مجاهل القارة الإفريقية ، فإن الإسلام لم يسلك طريقه إلى ما وراء الصحراء إلا بعد زوال دولته الكبرى فى المغرب ، ولكن الشعوب الإفريقية إلى الشمال لم تكن لتجتاز الصحراء التى لم تجاوزها قبل ذلك لولا دفعة من الحضارة يعززها إيمان العقيدة ... « وإن الفترة بين سنتى (٨٠٠ و ١٣٠٠ ميلادية) هى الفترة التى ازدهرت فيها حضارة للإسلام لم تشتمل حضارة أخرى على مثل ما اشتملت عليه من ثمرات الفكر والفن والعلم والسياسة ، وهى كذلك فترة نمت فيها دول من أهم دول القارة الإفريقية ، إذ قامت شعوب البربر بدور تاريخى كبير فى العالم الغربى والبلاد الآسيوية القريبة ، وقامت من خلفها إلى جنوب الصحراء ممالك من أعظم الدول التى كان للإسلام هناك شأن فى إقامتها » .

وكأنما ابتدأت مرحلة الامتداد إلى داخل القارة الإفريقية فى تقدير المؤلفين ، بعد انتهاء مرحلة الاستقرار فى شمال إفريقية وجنوب أوربة ، على أثر انحلال الدول الإسلامية القوية فى كلتا القارتين .

* * *

ويتخطى جاك بولن Bulin مراحل الماضى فى كتابه عن « دور العرب فى إفريقية » ليسأل عن دور الإسلام فى المستقبل القريب بين القوى التى يمكن أن تعمل فى توجيه القارة ، وهى قوة التبشير وقوة السياسة الدولية وقوة الوطنية غير الإسلامية .

ويقول المؤلف — وهو صحفى فرنسوى يعرف العربية والانجليزية — إن الكنائس تتغاضى عن الإسلام ولا تشتد فى مقاومته لأنها لا تنزله منزلة العدو الأول مع ما تحذره من خطر الشيوعية ، ولهذا لم تعقب صحيفة الفاتيكان بشىء على البيان الصريح الذى أعلن فيه شيخ الأزهر فى مستهل سنة ١٩٦١ م وجوب محاربة البعثات التبشيرية لأنها أداة من أخطر أدوات الاستعمار ، ولا يلوح من مسالك الوطنيين الإفريقيين غير المسلمين أن الدول الغربية التى كانت تستعمر بلادهم ستلقى منهم عونا فى السياسة التى قد تتبعها

(البقية على صفحة ٣٥٢)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كم تراءى لى رواء الليل ... أسطورة حب
قصة مجنونة الأشواق ترتج بقلبى

عاشقا بنسل كالأعصار يجتاح جنيدى
يزرع النجمات فى صيفى . وفى ليلى الوحيد

فارسا يأتى وفى عينيه إطلالة شوق
وعلى أهدابه لونى . وإيماءة ذوقى

كم تراءى لى . وكم قبلت فى الصمت جبينه
وحنينى كم مشى فى التيه يستجدى حنينه

وبعين اليأس والحرمان . فى ليلى أراه
فارعا كالسرو . مشوقا . وسيما . كإله

مقلتاه خيمتا سحر . . ونبعا ذكريات
وغدير فوق شطيه تصلى الأغنيات

وعلى كفيه عش مثلما أشتاق بيتى
يتراءى فيه عصفوران فى رعشة صمت

ويدق الصبح شباكى . ولا الفارس جاء
لا . ولا شالت ستارى كفه عبر المساء

الفراغ الجهم من حولى . وأحلامى الشهيدة
وبقايا وردة فى حجرتى ماتت وحيدة

غير أنى خلف قضبانى سأدعوه طويلا
ربما صادفت فيه فارسا . شهما نبيلا

ربما ينسل من خلف مجاهيل الصدى
ليدق الباب . . دقات رقيقات الصدى

محمد أحمد العزب

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(بقية المنشور على صفحة ٣٤٨)

لمقاومة الإسلام ، فما لم يأت المستقبل بنبأ جديد عن علاقات الوطنيين الإفريقيين بهذه القوى المتقابلة فهناك دور هام للعرب أو للإسلام فى القارة الإفريقية يحسب له حسابه الكبير فى توجيه مستقبلها القريب .

وهذا جواب معلق على سؤال المؤلف عن المصير ، ولكنه يخرج بجوابه المعلق من تردد الشك والإبهام إلى بعض الوضوح حين يشير تلك الإشارة إلى الدور الإسلامى المحتمل ؛ لأن الفريق الأكبر من الباحثين يحجمون عن الجواب النافع إذا قابلوا بين العدة التى استعد بها الإسلام أمس للإيغال فى قلب القارة الإفريقية وبين عدته التى قد يستعد بها اليوم للثبات والمزيد من التقدم ، ولا يبدو على أكثرهم أنه ينتظر من القارئ جوابا إلى الإيجاب إذا سألوا عن القوة الكامنة فى المسلمين : هل هى كفؤ لرسالتها الجديدة فى القارة الإفريقية ؟ ! ؟

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مختار من الشعر القديم والحديث

إلى التى شرب عقلها الشراب

الأستاذ على الجندى

إلى التى شرب عقلها الشراب

كانت حصاناً رزاناً تبدو فى حلتها الشوكاء البيضاء كأنها ملك كريم ! ! حتى إذا رشفت رشفات من « أم الخبائث » صلب وجهها الحيى ، وانطلق لسانها بالقول البذى ، وجعلت تلتفت يمينا وشمالا وأماما وخلفا كمن يرقب إنسانا أو يبحث عن إنسان ، وسط ضحكات ماجنة ترن رنين الكئوس التى بين يديها !

ماذا لقيت من الشراب يازين أتراب الشباب
قد كنت كالملك الكريم يضىء فى بيض الثياب
فغدوت شيطانا رجيما ، كل ما فيه يعاب

* * *

هيناك ، والحسن البديع — على وداعية — يهاب
حتى إذا لعب الشرا ب بمعطف الرود الكعاب
وتبخر الخضر الرقيق ، وكنت منه فى يقاب
وزها بخديك التهاب ، والسلاف لها التهاب
وهذيت والمخمور كالمحموم مسلوب الصواب
وأدرت عيناً فى الحضور كأنها عين العقاب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

براقة اللحظات كالهندى سل من القراب
تغرى بك النهم الدنـــىء كأنه بعض الذباب
قلنا — وملء صدورنا غضب ، وغيظ ، واكتئاب
ويح الجمال هوى من الأوج الرفيع إلى التراب
لعن الشراب ، فإنه أصل الخنى ! ! لعن الشراب

* * *

يا بنت مصباح السما ء سنا ، ويا أخت الشهاب
يا توءم الزهر النضـــير ، وصنو أرياق السحاب[1]
يا ربة العبق الشـــذى ، كأنه ريا الملاب
يا من لها صوت الهـــزار على الأفانين الرطاب
« أم الخبائث » — طبت نفـــسا — تفرس الأسد الصعاب
ما الظن بالظبي الأغن الأهيف الغصن ، الإهاب
ما يعصم الغيد الغرا ئز ، والحجا عنهن عاب ؟؟
قال الحـــكيم ، ولم يكن ما قال بالقول الكذاب[2]
نصف النساء — إذا رقصـــن — هوى إلى درك الخراب
وإذا شربن فنصفهن يروح نهبا للذئاب

---

(١) أرياق : جمع ريق ، والمراد به ماء المطر على التشبيه

(٢) يقول بعض حكماء الغرب — وهو العليم ببيئته — : إن نصف النساء يسقط فى الرقص ، والنصف الآخر يسقط فى الشراب .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خواطر عانس

للشاعر محمد أحمد العزب

ربما يأتى . . إذا صليت فى جنح المساء
ربما يأتى إذا رجرجت فى عينى دمعة
ربما ينسل من خلف مجاهيل المدى
آه . . كم يشتاق بأبى نقرات من يديه
كل ما فى البيت مشدود الزراعين يصلى
حزمة من أغنيات الشوق فى صدر البيان
مثل ما بالرمل من ترق إلى سيب المطر
مثل ما بالزورق المجروح من حب القرار
بى إليه . . غير أنى لا أرى يوما خطاه
خلف بابى . . ألف حلم يخنق الوهم صداها
وسريرى . كم على صدر سريرى بت عبرى
أمضغ الآهات فى صمت ضرير لا يبين
أتمنى فى ظلال الصمت أطياف لقاء
أرتمى تحت خطاه طفلة الشوق سليبة
فارسى الموعود . ياحلمى . ويا فجرى الظمى
أذرعى المطلوبة العذراء تدعوك فهيا
الذى اشتاقه أن تطرق الباب . وتدخل
آه كم أعبد أن تسأل عنى عن شرودى
لا تدعنى أقطع العمر سؤلا ما سئلت
فارسى : ليلى رفيقاتى مراح وصداح
كل سوسانة حقل صادفت فى الحقل طيرا
وشبابى وردة عذراء نامت مقلتاها
كم على صدر ظنونى البيض نقلت خطايا

ربما يأتى . . إذا صعدت لله الدعاء
أو إذا أشعلت فى ليل الحزانى ضوء شمعة
ليدق الباب دقات رقيقات الصدى
وجدارى الساهم الظمآن كم يهفو إليه
مخدعى الباكى . إناء الزهر . أحلامى وظلى
تمطر الليل نشيداً من حنين . . وحنان
مثل ما باللحن من شوق إلى بوح الوتر
من لهاث الشوق للشاطىء فى ليل البحار
تزرع الفجر على درب جراحى . لا أراه
ألف غصن يحرق الجدب براعيم صباها
أحضن اللاشىء . . أمتص عذاباتى حيرى
مثل فى طير راسف فى القيد مجروح الأنين
تحت كرم هارب خلف متاهات الفضاء
وهو يدعونى إلى دنيا انطلاقات غريبة
أذرعى تدعوك من خلف الضباب المعتم
كن كما شئت إذا أقبلت . . صنما أو سخيا
باحثا عنى . . عن الكرم الذى أوشك يذبل
فأنا ما زلت أشتاق سؤالا عن وجودى
فأنا أنثى عشقت الحب لكنى حرمت
وأنا ليلى رياح . وجراح . ونواح
يملأ الأفق حواليها أغاريدا وشعرا
فوق حلم هارب الأطياف يمتص شذاها
كم زرعت الغيب والمجهول بحثا عن فتايا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كم تراءى لى رواء الليل ... أسطورة حب
قصة مجنونة الأشواق ترتج بقلبى

عاشقا بنسل كالأعصار يجتاح جنيدى
يزرع النجمات فى صيفى . وفى ليلى الوحيد

فارسا يأتى وفى عينيه إطلالة شوق
وعلى أهدابه لونى . وإيماءة ذوقى

كم تراءى لى . وكم قبلت فى الصمت جبينه
وحنينى كم مشى فى التيه يستجدى حنينه

وبعين اليأس والحرمان . فى ليلى أراه
فارعا كالسرو . مشوقا . وسيما . كإله

مقلتاه خيمتا سحر . . ونبعا ذكريات
وغدير فوق شطيه تصلى الأغنيات

وعلى كفيه عش مثلما أشتاق بيتى
يتراءى فيه عصفوران فى رعشة صمت

ويدق الصبح شباكى . ولا الفارس جاء
لا . ولا شالت ستارى كفه عبر المساء

الفراغ الجهم من حولى . وأحلامى الشهيدة
وبقايا وردة فى حجرتى ماتت وحيدة

غير أنى خلف قضبانى سأدعوه طويلا
ربما صادفت فيه فارسا . شهما نبيلا

ربما ينسل من خلف مجاهيل الصدى
ليدق الباب . . دقات رقيقات الصدى

محمد أحمد العزب

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(بقية المنشور على صفحة ٣٤٨)

لمقاومة الإسلام ، فما لم يأت المستقبل بنبأ جديد عن علاقات الوطنيين الإفريقيين بهذه القوى المتقابلة فهناك دور هام للعرب أو للإسلام فى القارة الإفريقية يحسب له حسابه الكبير فى توجيه مستقبلها القريب .

وهذا جواب معلق على سؤال المؤلف عن المصير ، ولكنه يخرج بجوابه المعلق من تردد الشك والإبهام إلى بعض الوضوح حين يشير تلك الإشارة إلى الدور الإسلامى المحتمل ؛ لأن الفريق الأكبر من الباحثين يحجمون عن الجواب النافع إذا قابلوا بين العدة التى استعد بها الإسلام أمس للإيغال فى قلب القارة الإفريقية وبين عدته التى قد يستعد بها اليوم للثبات والمزيد من التقدم ، ولا يبدو على أكثرهم أنه ينتظر من القارئ جوابا إلى الإيجاب إذا سألوا عن القوة الكامنة فى المسلمين : هل هى كفؤ لرسالتها الجديدة فى القارة الإفريقية ؟ ! ؟

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

نظرات فى كتاب :

فلسفة تاريخ محمد

للأستاذ محمد جميل بيهم

بقلم : الأستاذ محمود الشرقاوى

مؤلف هذا الكتاب ، الأستاذ محمد جميل بيهم - لبنان - له فى حياتنا الثقافية مكانة مرموقة ، وله فى الدراسات التاريخية والإسلامية مباحث وآراء ذات قيمة ، صدر له خمسة عشر كتابا فى السنين الأربعين الأخيرة عن المرأة فى التاريخ والشرائع ، وفلسفة التاريخ العثمانى والانتدابات فى فلسطين وسوريا، وقوافل العروبة ومواكبها خلال العصور - جزءان - والعروبة والشعوبيات الحديثة ، والعرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، وله دراسة موجهة فى موقف الشرق العربى من أحداث العالم الكبرى الحاضرة هى : « واشنطن تعبد الطرق لموسكو فى بلاد العرب والمسلمين » وغير هذا من الكتب والدراسات .

قرأت له فى الأسابيع الأخيرة كتابين ، تفضل فأهداهما إلىّ ، هما : « أسرار ما وراء الستار : الإتحاد السوفييتى والصين الشعبية كأنك تراهما » وهى دراسة مفصلة قام بها لهتين الجمهوريتين بعد دعوة رسمية له منهما .

والكتاب الثانى : « فلسفة تاريخ محمد » وهو الذى أكتب هذه الكلمة عنه وعن آراء فيه ذات قيمة وملاحظات لها خطر ووزن :

أول ما نجد للمؤلف منهجه الذى رسمه لنفسه فى تأليف الكتاب وتناول موضوعه يقول فى رسم هذا المنهج إن كتابه هذا : « دراسات علمية وتاريخية فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول الظروف العالمية والأحداث التى تقدمت عهد النبى أو عاصرته ، سواء أكان ذلك فى جزيرة

العرب أم فى غيرها من أنحاء العالم ، تلك الظروف والأحداث التى مهدت لرسالته ، وأمنت نجاحها بمقتضى النواميس الطبيعية » .

وهذه السطور القليلة فى رسم المنهج تدلنا على قيمة الكتاب وإدراك الحاجة إليه بعد أن رأينا ، وما نزال نرى فى بعض البلاد ، من تلك الكتب الكثيرة فى « السيرة النبوية » التى ملأها أصحابها بالقصص والأساطير والإسرائيليات والأحاديث الموضوعة ، تلك الكتب التى لا تكتب : « سيرة النبى محمد » أو : « محمد الإنسان » وإنما « تروى » « مأثورات » عن أشياء يرضى عنها « إيمان العجائز » كتلك التى نجدها عند القاضى عياض وأمثاله ، ولكن العصر وثقافته لم يعودا يحتملانها ولا يتأثران بها ، وقد تنتج أثرا عكسيا .

وهذا بعض الأسباب لاهتمامى بهذا الكتاب وإيثارى إياه بالنقد .

* * *

منهج الكتاب هذا جعل المؤلف يدرك وينبه القارىء إلى الخطأ الذى يوجد فى تلك المبالغات الشاذة من جعل المعجزات والخوارق السماوية هى عمدة السيرة النبوية وقوامها وأساسها .

يقول الأستاذ بيهم فى ذلك : « ونحن وإن كنا لا نعبأ بالدعاوات سواء أتت من الغرب أم من الشرق ونعتبرها مأجورة لهذا أو لذاك إلا أن أمراً واحد آثار اهتمامنا ... وهو استمرار بعض المؤلفين الأجانب على النيل من محمد استنادا إلى الصورة المزوقة التى وضعها له بعض أصحاب السير على شكل لا يتفق مع صورته الحقيقية .

إن هذا الأمر كان حافزاً لى على تأليف هذا الكتاب الذى أتوخى فيه وضع سيرة نبينا على حقيقتها البشرية دون زيادة أو نقصان ، بغية ألا يبقى لهؤلاء الأجانب مبرر للنيل منه استنادا إلى صورته المليئة بالخوارق ص ٦

والأستاذ المؤلف يعتمد طبعا ويستشهد بآيات القرآن الكريم والحديث الصحيح - كما فعل غيره من كتاب السيرة - غير أنه يزيد عليهم ، وينفرد عن أكثرهم بأنه يضع « سيرة الرسول بأسلوب يعتمد على النواميس الطبيعية التى تربط الأسباب بالمسببات ، وترتب النتائج على المقدمات ... ولأن محمدا ، ذلك الكائن العظيم الذى أصاب ما أصاب من نجاح ، إنما يعود نجاح رسالته إلى أسباب متصلة بالنواميس الطبيعية ، كما يعود إلى صلاح هذه الرسالة ومجيئها فى الوقت المناسب »

- ص ٦ -

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على هذا المنهج العلمى الطبيعى البعيد عن التأثر بالعاطفة الغشيمة وعن الإيمان بالخوارق يسير المؤلف فى دراسته فيتحدث عن الأديان وتدرج الإيمان بها من الوثنية البدائية إلى التوحيد المطلق : « ملة إبراهيم حنيفا » . ويتحدث عن تلك الخصومات الحاقدة الشريرة التى جعلت كثيرين من الغربيين يتناولون سيرة محمد بألوان من الإفك والسخيمة ، كما فعل كيمون وبراديه وفوستر ورينان وجولد تسيهر ودروتى . ثم تحول كثيرين منهم إلى الحق والإنصاف وإكبار محمد النبى والإنسان كما فعل كارليل الإنجليزى وريلاند الهولندى وكانيه الفرنسى وجوته ـ شاعر ألمانيا الأكبر ـ وغيرهم من الإيطاليين والأمريكيين .

وفى هذه الدراسة وهذا التسجيل لا ينسى المؤلف دعوة الكتاب وأهل الأديان عامة إلى المحبة والتفاهم والأخوة البعيدة عن التعصب والشطط .

وكلمة التسامح والمحبة والفهم أعتقد أن الفاهمين المخلصين من رجال الفكر الدينى عليهم واجب الدعوة ـ بل الإلحاح فى الدعوة لها ـ بين أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية المختلفة وهذا حديث قد وفيناه حقه فى كتابنا « تقويم الفكر الدينى » .

المعجزات والخوارق :

يقول الأستاذ بيهم : « وقد اقتبس بعض المسلمين طريقة التزويق فى عرض سيرة الرسول حينما تناول الأعاجم منهم تدوين التاريخ : ذلك بأن فريقا من هؤلاء كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبى مجردة عن الخوارق والمعجزات التى تحفل بها سير أنبيائهم فى أديانهم السابقة ، فراحوا ينسبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها فى القرآن ، ولم يشر إليها الحديث. وعلى ما روى كتاب : « مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ٢٦ » فإن معجزات الرسول بلغ عددها ٤٠٥٠ معجزة جمعت فى مجلدين . ولما وضعوا سيرة مولد النبى استساغ بعض الفرس الذين أسلموا أن يزجوا فيها تلك الخرافات التى كانت تحفل بها سيرة نبيهم السابق زرا دشت . فجاءت قصة المولد على شكل ملئ بالخوارق التى لا تتفق مع مصادر الإسلام وملئ بما لا يلائم مع عظمة محمد » ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

فالأستاذ المؤلف يجعل حياة النبى محمد ـ فى جملتها ـ حياة طبيعية خالية من المعجزات والخوارق ـ عدى القرآن المنزل طبعا ـ ويجعل انتشار الدعوة المحمدية كذلك أمراً طبيعيا قائما على أسباب عادية من فساد الحكم

فى الدولتين القويتين المعارضتين للدعوة : بيزنطة وفارس ، وانصراف أهلها وحكامها للخصومة المذهبية والجدل البيزنطى المشهور. فليس فى تاريخ محمد - على رأى المؤلف - خوارق ولا معجزات ، وليس فى انتشار دعوته خوارق ولا معجزات - أنظر الفصل الرابع ، ص ٧٠ - ٩٧ - وأيضا الصفحات ١١٤ و ١٥١ .

ونحن نستطيع أن نقول : إن اختيار الزمن الذى ولد فيه محمد وبعثه برسالة الإسلام فى وقت ضعفت فيه الدولتان القويتان المعاصرتان : بيزنطة وفارس هما مظهران من أبرز مظاهر العناية الإلهية وتوفيقها لنجاح الدعوة المحمدية ، ولو لم يكنا معجزة بالمعنى العلمى لها .

أسباب اقتصادية :

ومن الآراء الهامة التى قد تكون جديدة فى المؤلفات العربية عن سيرة النبى عليه السلام إبراز المؤلف للناحية الاقتصادية وأثرها فى محاربة الدعوة المحمدية وانتشارها . فهو يذكر الأسباب الاقتصادية فى موقف الخصومة التى اتخذته قريش حيال صاحب الدعوة ومؤازرة اليهود [1] - أول الأمر - لدعوة الإسلام ، وفزع أهل مكة المشركين من هجرة المسلمين للمدينة خوف المنافسة الاقتصادية ، وخشية أن تتفوق المدينة على مكة فى المنزلة والمال والتجارة - ص ٩٤ - ٩٧ .

كما يذكر أسباباً اقتصادية أخرى لحرب النبى عليه السلام الروم - ص ١٢٧ وما بعدها

قضايا هامة :

ويثير الأستاذ بيهم فى كتابه هذا طائفة من القضايا الهامة بعضها من التاريخ وبعضها من الأدب وبعضها من الدين : من ذلك قوله إن العرب فى الجاهلية كان لهم أدب وكانت لهم ثروة . ولم يكونوا أهل فقر وجهل ، كما يخيل لعامة الناس » - على حد تعبيره - وإنما كان الفقر والجهل محصورين بين الأعراب من أهل البادية ، وليس ذلك صادقا على « أهل الحضارة فى اليمن والشام والعراق ، ولا أهل المدن فى الحجاز ، كمكة والطائف ويثرب » ص ٤٢ .

وهى قضية فصلها المؤلف وأقام عليها من الأدلة ما يكفى لإثباتها (الفصل الثالث) .

---

(١) تجد مباحث هامة عن موقف اليهود من النبى محمد فى كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب للدكتور اسرائيل ولفنسون . لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن هذه القضايا الهامة ما قاله المؤلف من أن أكاسرة الفرس أظهروا من الجفاء للنبي محمد ما هو معروف مشهور لا سبيل إلى الشك فيه . ولكن المجوس من أهل فارس وجدوا أنهم يلتقون ورسالة محمد « في صعيد واحد عند حامل مشعل الوحـــدانية الأول ، فلم يظهروا له جفاء دينيا مثلما أظهر أكاسرتهم له من الجفاء السياسي ، إذ رأوه يحول جزيرة العرب إلى الأمبراطورية البيزنطية دونهم ، حتى إذا استغل الإسلامُ من بعد انحلالَ المجوسية ، وانحلال السلطة الفارسية وتمكن من استئصال دولة الأكاسرة ، أقبل المجوس عليه مسلمين » .

والشق الثاني من القضية ـ أي دخول المجوس في الإسلام راضين غير كارهين وشعورهم « بالالتقاء » مع رسالة النبي محمد في صعيد واحد ـ هذه الدعوى لم يقم عليها من المؤلف دليل وهي يمكن أن تكون مثار شك وجدل شديد ، فأين عبدة النار ممن يؤمنون بواحد قهار ؟ وأين إدلال الفرس بمجدهم وتاريخهم ، وإحاسهم الراسخ حيال الشعوب الأخرى وما رسخ في نفوسهم من الشموخ والتعالي عليهم ـ وبخاصة العرب ـ ذلك الشموخ الذي بقيت منه مخلفات راسخة عميقة بعد الإسلام أيضا ، كان لها آثار كبيرة معروفة في تاريخ المسلمين ، وما يزال لها إلى الآن آثار .

ومن هذه القضايا ما « يعتقده » المؤلف من أن « الصابئة » الذين ذكرهم القرآن الكريم كانوا فرقة من الفرق النصرانية عاصرت محمداً ، وكانت تحمل هذا الإسم ، وهذا الاعتقاد قد يكون صحيحا ، ولكن الاستدلال الذي ساقه المؤلف لصحته مما ذكره معجم لاروس الفرنسي عن كلمة : " Sadéisme " وما ذكره صاحب تفسير « الجلالين » من أنها « طائفة اليهود أو النصارى » : هذان الاستدلالان لا يكفيان ، في اعتقادي ، لصحة القضية (ص ٣٨ — ٣٩) .

وكذلك يقول المؤلف إن « اليهود ما إن رأو الإسلام بدأ ينتشر في يثرب حتى رحبوا به على اعتباره فرعا من اليهودية مفروضا أن يكون مؤيداً لهم على الوثنية فيها ، وحتى شجعوا ، بطرقهم الخاصة ، المسلمين من أهلها على إقناع محمد بأن ينتقل إلى يثرب ويهجر مكة » : ص ٩٤

وهاتان دعويان ساقهما المؤلف بلا دليل ، ونحن نعرف أن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت بوحي من الله . لا شأن لليهود ولا « تشجيعهم المسلمين » بها . ولا شأن « لإقناع » المسلمين للنبي بها أيضا .

وعندما ذكر المؤلف « الصابئة » :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« ص ٢٩ و ١١٨ » أورد الآية الكريمة من سورة البقرة : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) : ٦٢ أورد المؤلف هذه الآية الكريمة ثم قال إنها وردت : « فى مجال تطمين المؤمنين منهم عن المصير » - ص ٣٩ -

وهذه ، كما أعتقد ، إشارة إلى تفسير للآية لمح له الإمام محمد عبده [1] ولكن المفسرين والعلماء ورجال الفكر الدينى عامة ينكرونه ويسخطون عليه أعنف السخط .

وكذلك ما ذكره الأستاذ عن النسخ فى القرآن : ص ٢١٩ — ٢٢١ يحتاج ، من الناحية العلمية ، إلى تحرير ، كما يقول العلماء .

ملاحظات وما آخذ :

الكتاب جيد الورق حسن الطباعة ، له غلاف ملون مرسوم برسوم عربية جميلة . ولكن هذا الرونق لم يعفه من أخطاء غير قليلة ، بعضها فى اللغة وبعضها فى رواية النصوص ونقلها ، وكثير منها فى الطباعة : فهو يكتب كلمة : « الذمام » مثلا الزمام : « حفظ العهد والذمام » ص ٤٢ و ٢٠٦

وكذلك يقول : الزود عن الحياض - ص ٦٢ وصحتها « الذود » وفى ص ٦٣ يقول : « ذبيبة الجاريه » وهى « زبيبة » وكذلك كلمة « مزريه » يكتبها « مذريه » - ص : ٦٧ - وفى هذه الصفحة نفسها نجد كلمة « النزر » وهو يريد « النذر » ويضع الواو بعد « بل » ص ١٤٦ - وهو خطأ فاش يقع فيه كثير من الكتاب . ويضع أيضا بعدها حرف الفاء - ص ٨٠ - وفى ص ١٢٧ نجد تعبيراً ممعناً فى العامية هو : « فما عدا مما بدا .. الخ » كما نجد - فى ص ٤٨ - تعبيرا غير مستقيم عربيا ، يدرك ذلك من يتأمل السطور : ١١ ١٧ من هذه الصفحة .

هذه أمثلة من الخطأ فى الكلمات ، وفى الصياغة . وهناك أخطاء فى نصوص القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، هذا بعضها :

ص ٨٥ : الآية الكريمة : . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا « يستنقذوه » منه . كتبت الكلمة : « يستنفدوه » .

(١) انظر : ص ٣٢٤ من تفسير الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا الطبعة الثالثة : تفسير الآية ٦٢ البقرة . و ص ١٦١ - ١٦٤ من تفسير الشيخ الإمام لجزء عم : الأميرية ١٣٢٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ص : ١٠٢ الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين » كتبت الكلمة : «وانزر»

ص : ١٤٣ الآية : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » كتبت : « فقد » .

وفى رواية الحديث أخطاء ، منها الحديث المشهور : « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وردت كلمة : « أحرث » بدلا من : « إعمل » ص ٢٣٧

والحديث الشريف : « والله ما نالت من قريش « شيء » أكرهه حتى مات أبو طالب » والخطأ فى كلمة « شيء » واضح - ص ١٠٧

وفى كتاب النبي عليه السلام إلى قيصر الروم وردت كلمة « الأريسيين » خطأ - ص ١٤٤ -

وهناك أمر لا أستطيع الجزم بأنه خطأ أو لبس ، فقد جاء فى ص ٣٨ هذا التعبير : « وفى القرآن حواره - أى إبراهيم - معهم وكسره أصنامهم ، ومحاولتهم إحراقه ، فكانت النار برداً وسلاما على إبراهيم كما جاء فى سورتى الأنعام والصافات » .

ووضع كلمات : « فكانت النار . . الخ » وما بعدها بين قوسين بالحرف الأسود الكبير الذى يميزها عن سابقها ولاحقها ، وتعقيبها بجملة : كما جاء فى سورتى الأنعام والصافات ، يوهم بأن ما بين القوسين هو نص الآية ، وليس الأمر كذلك ، فالآية كما نحفظها وكما نزل بها القرآن هى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم » الأنبياء : ٦٩ .

والآية ، كما رأينا ، فى سورة الأنبياء لا فى سورتى الأنعام والصافات .

وفى الكتاب ملاحظات أرى من الخير ألا تمر من غير تعليق : من ذلك أنه أورد خطبة قس بن ساعدة المشهورة التى ألقاها فى سوق عكاظ : « إن فى السماء لخبرا ، وفى الأرض - وصحتها وإن فى الأرض لعبرا . الخ » ويقول المؤلف إن النبي عليه السلام « سمع هذه الخطبة قبل البعثة » ثم « جاءت عبارات منها فى القرآن » ص ٥٠

ودعوى أن النبي عليه السلام سمع خطبة قس قد تكون صحيحة ، ولكنها تحتاج إلى دليل ، ولكن المؤلف الكريم لم يدلنا على هذه «العبارات» التى جاءت فى القرآن الكريم من هذه الخطبة .

ثم : هذه القصة التى أوردها المؤلف ونسب فيها لقس ما نسب من بشارة بنبي جديد ، هذه القصة أجد ما يبرر الشك فيها ، ولو أن المؤلف نقلها عن « السيرة النبوية » ولم يقل لنا فى أى سيرة هى من السير - ص ٥٠ أيضا - .

وأورد المؤلف - ص ١٦٦ و ٢٢٢ - قصة وفد ثقيف ودخوله الإسلام ، وأنهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شرطوا لإسلامهم بعض الشروط ، ثم يقول « ورغم ما يعرف من بأس ثقيف ، ورغم ما يعلق على إسلامها من فوائد ، فإنه أبى عليهم إلا أن يسلموا دون قيد ولا شرط » .

وقصة إسلام ثقيف ـ كما سجلتها كتب السيرة والحديث ـ تختلف عن ذلك ، فقد (قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم المسجد ، ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا يحشروا (١) ، ولا يعشروا (٢) ، ولا يجبوا (٣) ، ولا يستعمل عليهم غيرهم . فقال عليه السلام : إن لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ، ثم قال عليه السلام : لا خير فى دين لا ركوع فيه (٤)) .

وروى أبو داود : (عن وهب قال : سألت جابر عن شأن ثقيف إذ بايعت قال : اشترطت على النبي صلى الله عليه وسلم ألا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقول : سيصدقون ويجاهدون إذا أسلموا (١)) .

ومن هنا نعرف وجه الصواب فيما ذكره المؤلف من أن النبي عليه السلام : « أبى عليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط » فإنه قبل بعض شروطهم وعلل ذلك ، عليه السلام ، بأنهم سيفعلون ما يجب على كل مسلم أن يفعله من بذل الزكاة والخروج للحرب ، إذا أسلموا وأشربوا حب الدين .

وقد تحدث المؤلف ، فى الفصل العاشر ، عما سماه بالحظ أو القدر السعيد الذى رافق محمداً عليه السلام ، ثم ذكر ـ فى ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ قصة الغار والعنكبوت التى يعرفها قراء « المولد النبوى » وسامعوه ، ويقول بعد ذلك إن الحظ ، أو القدر ، إن شئت أن تقول ، هو الذى صرف المطاردين عن ملاحقة النبي وصاحبه ومنعهم من دخول الغار .

وما دام الأستاذ المؤلف يؤمن بصدق هذه القصة عن الحمامتين والعنكبوت ـ على خلاف منهجه فى الكتاب ـ فالأمر عندئذ أمر معجزة إلهية ، لا أمر حظ وقدر وتوفيق ومصادفة سعيدة .

وفى ص ١٧٥ نجد تعبيراً خانه التوفيق ،

---

(١) لا يجاهدوا ولا يحاربوا

(٢) لا يدفعوا عشر الزكاة .

(٣) لا يصلوا .

(٤) مسند أحمد ، ج ـ ٤ ـ ص ٢١٨ .

(١) أبو داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء باب : ما جاء فى خبر الطائف .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهو يتحدث عن ثياب النبي عليه السلام ؛ وتواضعه فى ملبسه ومأكله ومسكنه ، ثم يقول « أما بيته فكان من البيوت الوضيعة » والسياق لا يدفع مجالا للشك فى أنه يريد بالبيت « المسكن » ولكن التعبير - كما قلنا - خانه التوفيق . فهو يريد أن يقول إن النبي عليه السلام كان يسكن بيتا « متواضعا » .

وهناك خطأ فى الشعر ، فالبيت المشهور - وهو للمتنبي - الذى يقول :

ووضع الندى فى موضع السيف « بالعلا »
مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى

هذا البيت وضعت فيه كلمة « للعدا » بدلا من كلمة « بالعلا » ص ١٦٨ .

* * *

على أن هذه الملاحظات والمآخذ الهينة لم تنقص من قيمة هذا الكتاب الجيد الذى أفدت منه واستمتعت به وتعلمت عليه أشياء كثيرة ، والذى أنصح المشتغلين بدراسة السيرة النبوية الكريمة ، والثقافة الإسلامية بعامة أن يطالعوه وأن يفيدوا منه مثل ما أفدت ويستمتعوا .

إشارات وتوجيهات :

وليس : « فلسفة تاريخ محمد » كتابا يتحدث عن التاريخ وفلسفته فى حياة محمد فقط ، بل يتضمن إلى ذلك إشارات ذات قيمة لحاضر المسلمين اليوم ، كهذه الإشارة إلى وحدة عربية قائمة على الألفة والتفاهم والمحبة والمنفعة - ص ١٦٠ - ويتضمن توجيهات مخلصة صادقة ، كذلك الحديث المؤثر المفيد عن « الإخلاص » الذى قال فيه المؤلف : (. . . بهذا الإيمان الصحيح الثابت المنزه عن الأغراض الدنيوية ، وبهذا الإخلاص فى إبلاغ رسالته ، استطاع محمد أن ينقل إيمانه إلى قلوب المؤمنين ، وأن يذلل كل عقبة كانت تعترض سير الإسلام وانتشاره) ص ١٦٧ - وأيضا : ٢٤٧ .

وهذه دعوة نرجو أن يصغى إليها ويستوحيها ويعمل بها المسلمون اليوم ، وأن يتأملها ، على وجه خاص ، بعض المشتغلين بالفكر الدينى اليوم بين المسلمين فى بلادهم جميعا .

محمود الشرقاوى

لفت نظر ..

يلاحظ القراء أن المؤلف - كما ذكر الكاتب الأستاذ محمود الشرقاوى - جرى على اعتبار محمد صلى الله عليه وسلم مصلحا عاديا وإن كان أعظم مصلح ولم يعتمد على معجزات وخوارق كما اعتمد الأنبياء قبله ، وقد نسب الكاتب للأستاذ الإمام محمد عبده

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رأيا أنكره عليه العلماء في فهم قول الله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقد عرض الكاتب بكتاب (الشفاء) للقاضي عياض على ماله من قيمة عظيمة ، والمعروف الذي لا يجهله عالم أن الإيمان بالله لا يفهم على معنى الإيمان بذاته لأن ذاته تعالى فوق أن يحدها الكشف والوصف ، ولأن متعلق الإيمان لا يكون إلا نسبة ، فالإيمان به معناه الإيمان بوجوده وقدرته وكتبه ورسله وكل ما ينسب إليه من صفات الكمال ، وما يصدر عنه من أقوال ، فمعنى « من آمن بالله » بعبارة واضحة صريحة - من أسلم ودخل في دين الله بدليل قوله تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

أما الخوارق فحسبنا أن نشير إليها بقصة الإسراء وبقول الله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » ، وقوله « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، وقول الشاعر الحكيم العالم شوقي :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت
وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتق والقدم

ويكفي الآن هذه الإشارة العابرة أو اللمحة الطائرة والسلام على من اتبع الهدى ؟

عبد الرحيم فوده

تعريف طريف للشعر

قرأت في كتاب « دراسة الشعر » لأدريان تلجر تعريفا للشعر أعجبني للأب اكسفاييه بينتلي اليسوعي وذلك قوله : « الشعر حلم يتهيأ في يقظة العقل » والمعنى الذي فهمته من هذا التعريف أن الشعر أو الفن على الجملة نشاط روحي يتسم بالفكر والمنطق . فالشاعر يحلم ولكنه يدرك ما يتراءى له . . يحلم وعيناه مفتوحتان . وما يحلم به في يقظته ، يختلف في طبيعته وفي نتيجته عما يحلم به النائم في نومه.

حلم الشاعر إغفاءة في صحوة الضمير ورقابة العقل ، فلا هو رؤيا ولا هو رؤية . هو نتيجة روحية سابقة لانتباه العقل ، وقضايا منطقية سابقة لقياس المنطق ، إدراك خالص للتصور وللضمير في وقت واحد ، يكون فيه الشاعر وهو ذاهل في تأمله ، مستغرق في تخيله آمنا من الضلال بعيدا عن الخطأ . وكذلك القول في كل فن وفنان .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

دراسة فى ديوان :

أيام من عمرى

للشاعر : ابراهيم محمد نجا

بقلم الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

أسائل نفسى ، وقد انتهيت من قراءة هذا الديوان الجديد « أيام من عمرى » للشاعر محمد ابراهيم نجا .

أولا : ما الصلة الفكرية بين الشاعر ومجتمعه الجديد ؟ وبعبارة أخرى : ماذا يؤديه هذا الديوان من رسالة لتفكيرنا المعاصر ؟

ثانيا : ما الرسالة الفنية التى يدعو إليها هذا الديوان ؟

— ٢ —

وللإجابة على السؤال الأول نعود إلى مذهب الالتزام فى الشعر الذى يدعو إليه بعض النقاد فى مجتمعنا لحاجتنا إلى بناء نهضتنا الجديدة على أسس روحية تتجمع فى دعمها كل طاقات الروح والفن . ويرفضه آخرون لأن الفن يأبى الالتزام ويؤمن بالحرية وللشاعر نجا رأى وسط فى هذا الجانب كتبه فى مقدمة الديوان ، قال إن الالتزام فى الشعر لا بأس به حين ينبع من الأعماق ، ثم يتجلى فى صورة فنية وإطار جميل ، ولكنه يصبح خطراً على روح الشعر وجوهر الفن حين يأتى من الخارج فحسب فيصبح ضريبة مفروضة تجعل الفن أقرب ما يكون إلى مجموعة من اللوائح والقوانين ، والتوجيهات والإرشادات ، مع أنه من البدهى أن الفن لا يعالج المشكلات ولكنه يصورها ، ولا يحللها وإنما يكتفى بالإيحاء بها ومن البدهى أيضا أن لغة الفن لغة رمزية ، لغة ترقص الباليه فكيف نريد من راقصة الباليه هذه أن تترك رقصتها الموحية ، لتقف خطيبة أمام الجماهير .

رأى مقبول ، أميل إليه ونحن لا نستطيع أن نحاسب الشاعر برأى نفرضه عليه ، وإنما يجب أولا أن نعطى الشاعر حريته ، ونستمع إلى رأيه ، ثم نحاسبه وفق هذا الذى رآه ...

الالتزام ينبع من الأعماق ولا يفرض من الخارج ، هذا هو رأى الشاعر نجا فى الموضوع ، وهو رأى له قيمته ، ونحن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نحاسب شاعرنا بميزان نضع فى إحدى كفتيه هذا الأصل الذى قرره الشاعر ، ونضع فى الكفة الأخرى شعر الشاعر نفسه فى ديوانه الذى نناقشه هنا .

إننا وإن كنا لا نعرف تاريخ نظم الشاعر لقصائد الديوان ، لأنه لم يذكر فى آخر كل قصيدة العام الذى نظمت فيه ، كما يفعل كثير من الشعراء وإن كان هذا الديوان لا يحتوى كل شعر الشاعر ، لأنه لا يزال لديه مجموعات أخرى مخطوطة من شعره . . لكن الحكم من أجل ذلك لا يختلف فى كثير ولا فى قليل ؛ لأن الديوان قد ظهر هذا العام ، ونحن لا نفرض على الشاعر أن يكون ملتزما ، بل نقول ونحن نناقش هذا الديوان : إننا سوف ننظر بعين الاعتبار إلى مذهبك فى الالتزام « وإنه لا بأس به حين ينبع من الأعماق ، ثم يتجلى فى صورة فنية وإطار جميل » .

فبماذا شارك الشاعر نجا مجتمعه فى تفكيره المعاصر ، الذى نستطيع أن نلخصه فى الحرية والاشتراكية والقومية العربية ؟ .

للشاعر فى آخر الديوان مسرحية شعرية وطنية ، عنوانها « فى سبيل الوطن » سجل فيها بالحوار الشعرى قصة أم ضحت فى سبيل الوطن بابن لها ، ثم ضحت فى سبيل هذه الغاية نفسها بابن آخر كذلك . وفى هذه المسرحية يدافع الشاعر عن الحرية والثورة ، وعن مبادئ الأحرار الثوار من العدالة وغيرها فيقول على لسان عصام مخاطبا أمه :

وتذكرى الأحرار من أبطالنا
وبهم عززنا بعد طول هوان
حملوا على راحاتهم أرواحهم
وتسلحوا بالعزم والإيمان
وأتوا إلى الدنيا بأكرم ثورة
هدمت صروح الظلم والطغيان
عنوانها حرية وعدالة
أكرم بما اتخذته من عنوان

ويقول كذلك على لسان الطيف يخاطب أم عصام :

هو من شباب عاش أروع حقبة
من عمره مع ثورة الأبطال
إنا ندافع عن مبادئنا التى
نبنى بها حرية الأجيال
أشخاصنا تفنى ويسعد بعدها
بخلوده الوطن العزيز الغالى

ومن هذا نستبين مدى التجاوب بين الشاعر ومجتمعه الثائر ، وبين شعره والثورة فى وطنه وعصره .

وفى مطلع الديوان قصيدة جديدة عنوانها « بين ريح وشجيرة » . فى صدرها دعوة نبيلة إلى الحرية . . يقول الشاعر على لسان الريح يخاطب الشجيرة :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أنا أعلى منك شأنا
أنا أسمى منك قدرا
هل يساوى العبد من عا
ش مع الأيام حرا ؟
والذى عاش اختيارا
دونه من عاش قسرا

وللقصيدة نزعتها الفلسفية ، التى تأثر فيها الشاعر بشعر المهجر عامة ، وبإيليا أبى ماضى بصفة خاصة ، كما تأثر بذلك كله فى قصيدته الأخرى « وبقيت وحدى » التى تنطوى على نفس النزعة ، والقصيدتان من أروع شعر الديوان .

وإذا كان الجانب الرومانسى قد طغى على الديوان ، فإنه لم يمح شخصية الشاعر وتفكيره الموصول بتفكير مجتمعه ، وإن كان ما كتبه الشاعر فى ذلك الجانب قليلا من كثير .

ويتراءى إيمان الشاعر بالحرية فى كثير من قصائده الوجدانية ، يقول من قصيدته « أحزان المساء » يصور أن سعادته فى أن يحيا طليقا حرا :

إننى أشتاق أن أحيا سعيدا
أترك السجن وأجتاز القيودا
وأرى عمرى وقد صار نشيدا
هائما فى الكون يرتاد الوجودا

ويقول الشاعر من قصيدته « عذراء » يصور حبه للحرية ، للانطلاق :

هذه حياتى .. لهفة
حيرى ووجد وانطلاق

والحرية هى أساس كل دعوة من دعوات مجتمعنا الثائر ، والشاعر إذا آمن بالحرية فقد آمن بكل شىء وإذا دعا إلى الحرية فقد دعا إلى الاشتراكية والقومية ، وإلى كل نبيل من الدعوات .

ومن الصور الشاعرة التى كتبها الشاعر عن مجتمعه قصيدته « ليالى الحصاد » ، التى صور فيها جمال هذه الليالى فى الريف تصويرا رائعا نادرا ، وفيها يقول :

يا عذارى الحقول يا منية الأر
واح رفقا بهذه الأعواد

ويريد الشاعر أعواد القمح وسنابله :

إنها منبع الحياة لشعب
ما ترى إلا على الأمجاد
قد غذاها بروحه نيل مصر
وسقتها روائح وغوادى
ورعتها الشمس المنيرة حتى
هيأتها لمنجل الحصاد
حسبها أنها تمد عروقا
فى ثرى مصر كعبة القصاد
كل نبت وكل شىء عزيز
حين ينميه موطن الأجداد
يا عذارى الحقول أين غذاء الر
وح بعد الغذاء للأجساد

إن تقدمنه تقدمن مجـــدا
وسناء وعـــزة للبـــلاد
إنما الكون ساحة لسباق
قوة الروح منه خير الجياد

والقصيدة عالية النمط والأسلوب والتفكير وفيها مشاركة ظاهرة بين الشاعر ومجتمعه ، وإن كان تعبيره بكعبه القصاد جاء مفحما على الصور الشعرية التي يؤديها الشاعر . .

— ٢ —

وللإجابة على السؤال الثاني وهو الرسالة الفنية التي يدعو إليها الديوان ، أقول :

إن الشاعر « نجا » يؤمن بالاتجاه الرومانسي في الشعر ، هـذا الاتجاه الذي دعت إليه مدارس : شعراء المهجر ، وشعراء الديوان ، وشعراء مدرسة أبولو . ومن قبلهم دعا إليه الشاعر « مطران » . وديوان « أيام من عمري » مملوء بقصائد الحنين والشوق والحب والهيام التي يفني الشاعر فيها ، إذ تتأجج هذه العواطف النبيلة في صـــدره ووجدانه وخواطره ومشاعره في شتى قصائد الديوان . والتي يبدو فيها تأثر الشاعر إبراهيم نجا بالشاعر الكبير إبراهيم ناجي .

وكقرب اسمي الشاعرين بعضهما من الآخر تقارب الاتجاه الشعري بينهما ، أو قل على الأصح : تأثر « نجا » بناجي تأثرا واضحا في شعره عامة ، وفي قصائده : أحزان الوجود ، وعذراء ، وصلوات روح ، خاصة .

والحب عميق الجذور في نفس الشاعر إبراهيم نجا ، ومن روائعه قصيدته « اذكريني » وصلة الحب الوثيقة بقلب الشاعر يؤكدها قوله من قصيدته « ضراعات » ...

لولا الهوى ماتت الأشعار في خلدي
ولم أكن لأذوق الحب لولاها

ويقول من قصيدته « بلا أمل » يتحدث عن الحب ويفلسفه :

وأحسسته نورا يعانق مهجتي
وينساب في قلبي انسياب الجداول
وإني لأهوى الحب حتى لو أنه
يعذب قلبي بالشقاء المواصل
عرفت به معنى الحياة وروحها
وأدركت سر الكائنات الأوائل

وللطبيعة سحرها عند الرومانسيين عامة ، و « نجا » من بينهم ، فهو يكثر من الحديث عنها في كل قصائده ، يصور فيها الحقل ، والخميلة والزهرة والبحر والماء والموج والهواء وغيرها من مظاهر الطبيعة ، ويتحدث عن الربيع في قصيدة مفردة عنوانها « جاء الربيع » . وقصائده : ليالي الحصاد ، وعلى الشاطىء ، وسواها ، صور جميلة لشعر الطبيعة الذي ينبع من أعماق نفس الشاعر ، إذ تمتزج مرائي الطبيعة بنفسه ووجدانه وخياله امتزاجا قويا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويؤمن « نجا » بضرورة تعبير الشاعر عن ذاته ، وتعبير الشعر عن نفس صاحبه إيمانه ببساطة الأداء وصدق التعبير .. ومن ثم يؤكد فى مقدمته لديوانه أن الشعر يجب أن يكون صادق الشعور ، صادق التعبير . .

ولغة إبراهيم نجا الشعرية لغة رقيقة عذبة يؤدى بها أضخم المعانى وأبسطها على السواء ويجعلك وأنت تقرؤها تؤمن بجمال البساطة فى الأسلوب والتعبير والأداء .

ويلتزم نجا الوزن الشعرى فى قصيدته ، وإن كان يجيز تعدد البحور فى القصيدة ، كما فعل فى قصيدته الوجدانية الرائعة . « رسائل ضائعة » ، إذ نظم مقطعها الأول والثانى من بحر الطويل ، ومقطعها الثالث من بحر المتقارب . والقصيدة مع كلاسيكيتها فى الأسلوب رومانسية الصور والأخيلة والمعانى الشعرية . وكذلك عدد الشاعر البحر الشعرى فى مسرحيته الأخيرة . .

أما القافية فالشاعر فى أغلب قصائده ينوع فيها ، فيجعل قصيدته على نمط الرباعيات أحيانا كثيرة ، وقد يجعلها خماسية المقاطع أو سداسيتها أو ثمانيتها ، ولكل مقطع منها قافية خاصة ، وقد تختلف أبيات كل مقطع عن الآخر ، وقد يسلك نهج الموشحات فى بناء القصيده ، كما فعل فى قصيدته « قصة شريد » . والقصائد ذات القافية الواحدة قليلة فى الديوان ، ومنها قصائد : ليالى الحصاد - بلا أمل - صارحينى - ضراعات - صلوات روح .

وفى شتى قصائد الديوان تحدث الشاعر عن نفسه وحياته وفلسفته فى الحياة أحاديث حالمة هامسة رومانسية .

— ٤ —

وفى إجمال شديد أقول : إن رسالة الديوان الفنية تتخلص فى أنه بنهجه الفنى دعوة قوية إلى بساطة التعبير وصدقه ، وإلى صدق الشعور ، وإلى التجديد فى بناء القصيدة العربية ، التجديد الذى لا يتنافى مع تقاليد الشعر ، ولا تأباه أصوله وأسسه الفنية .

إن إبراهيم نجا الشاعر قد وهب لغة الشعر طاقات جديدة ، ومنحها قوة وقدرة على إمكان متابعة الشعر للحياة وتأثيره فيها ، وتأثرها به ، وذلك عمل كبير ، ورسالة جليلة ، نحمد من أجلها الشاعر وديوانه ، ونرجو لهما التوفيق فى نشر هذه الرسالة وإذاعتها بين الناس .

محمد عبد المنعم خفاجى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بريد المجلة

الألمانى يكتب عن الإسلام :

نشرت مجلة الأدب والحقيقة التى تصدر فى فرايبرج بألمانيا مقالا تحت عنوان «الإسلام والتيارات العالمية» للمستشرق (أرنست بانيرت)

والمستشرق ليس غريبا عن الإسلام ، فلقد زار الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت وقد تفضل فضيلة الإمام الأكبر وأهدى إليه كتابه المشهور (الإسلام عقيدة وشريعة) .

والمستشرق له كتاب «الإسلام اليوم وغدا» ونشرت له المجلات الألمانية عدة مقالات عن الإسلام .

وألقى ثلاثين محاضرة عن الإسلام فى جامعات فينا ، كما ترجم حياة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت من العربية إلى الانجليزية ، وله كتب أخرى عن الإسلام ، وهو مشغول الآن بمعالجة كتاب منهاج العابدين . والمرجع الأول له فى كتابه كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة) .

ولقد تناول فى مقاله السالف عصر النهضة الروحية التى قادها الشيخ جمال الدين الأفغانى وحمل لواءها الشيخ محمد عبده ، وكيف تكونت مدرسة لها قيمتها يقودها اليوم الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمود شلتوت .

وتكلم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجن والإنسان ورسالته فى الحياة طبقا لما يقول أهل السنة .

وتكلم عن أركان الإسلام والنهضات الدينية التى قامت فى بلاد الإسلام ، وأشاد بالزكاة وقيمتها فى الحياة الاجتماعية وأنها طريق وسط بين إلغاء الملكية وطغيان الرأسمالية .

ورأيه فى القومية العربية أنها تخالف القوميات الأوربية وأنه لا يمكن البعد بها عن التراث الروحى للأمة العربية .

ثم تكلم عن الاشتراكية العربية كما وضع أصولها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب . وفى نهاية مقاله تحدث عن صلة المسلمين القوية بدينهم ، وأعجب بالروح الدينية العالية التى تسود بلاد الجمهورية العربية المتحدة وروح التسامح العظيمة التى تظهر فى تبادل الزيارات بين رجال الإسلام والمسيحية .

والمقال مراجعه من الكتب العربية الحديثة لكبار الكتاب المسلمين وهو جهد يشكر عليه من قراء اللغة الألمانية فقد جعل همه إزالة كل الشبهات التى يقع فيها كل قارئ عن الإسلام فى أوربا ؟

عبد العزيز عبد المعطى عرفة

بإدارة الثقافة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خطأ فى قصيدة (لا تكذبى)

جاء فى قصيدة (لا تكذبى) للأستاذ الشاعر كامل الشناوى قوله :

ماذا أقول لأدمع
سفحتها أشواق إليك

ماذا أقول لأضلع
مزقتها خوفا عليك

والوزن فى (سفحتها) لا يستقيم إلا إذا حذفت الألف من الضمير (ها) فنقول (سفحته) فهل هذا يجوز ؟

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

(**المجلة**) حذف الألف من الضمير (ها) لا يجوز صرفا ولا عروضا ، وكان من الممكن أن يقول الأستاذ الشاعر مثلا .

ماذا أقول لأدمع
أهرقتها شوقا إليك

ماذا أقول لأضلع
مزقتها خوفا عليك

فيسلم من هذا الخطأ ويزاوج فى الألفاظ بين البيتين .

لفت نظر :

جاء فى عدد شوال سنة ١٣٨١ هـ فى مجلة الأزهر فى مقال للدكتور سعد الدين الجيزاوى صحيفة ١٢٢٠ من العمود الثانى سطر ١٤ فى معرض قصة المتخلفين الثلاثة قال:

إنهم ربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد والصحيح أنهم لم يربطوا أنفسهم ولم يربطهم أحد .

يقول أحد الثلاثة: فأما صاحباى فاستكانوا وقعدوا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد ... إلخ حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى يقول ـ يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتزل امرأتك ..إلخ .. قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا .. إلخ .. وكان الفرج . أقول ـ ظهر من هذا أنهم لم يربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد .

وأما الذى ربط نفسه فى سارية المسجد فهو أبو لبابة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه فى ذلك فأشار بيده إلى حلقه أى أنه الذبح ففطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه فى سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كاد يخر مغشيا عليه من الجهد

فلما أنزل الله توبته وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فحله ، فظهر من هذا أن هذه واقعة غير تلك ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

محمد بدر الدين الفقيه المصرى

تعقيب على نقد :

فى عدد صفر من مجلة الأزهر تفضل الأستاذ محمد عبد الله السمان بنقد كتاب « ذم الهوى » لابن الجوزى الذى قمت بنشره .

ومع أن الأستاذ كان حسن الظن بى حيث أطرى بعض عملى وقدره ، فقد أحببت أن أجيب بإيجاز عن استفسارات وأرد على وجهات نظر أثارها الناقد .

فقد رفض الأستاذ أن يكون الكتاب من كتب الفكر أو التوجيه الإسلامى بحجة أن ابن الجوزى لم يعتمد فى كتابه على منهج محدود ولا مناقشة مدروسة بل اعتمد على سرد القصص إلخ .

ونحن لا نرى أن ابن الجوزى لم يعتمد على منهج محدود ، بل هو حدد منهجه من بداية الأمر أو قسم كتابه خمسين بابا تناولت كل جوانب موضوعه ، وهو ذم الهوى ، الذى قال عنه فى بداية الفصل الثانى : « وكتابنا هذا لذم الهوى فى شهوات الحس، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا» (ص١٦) بل هو يقول فى مقدمته التى ذكر فيها سبب تأليف الكتاب أنه نصيحة لمبتلى بالهوى قد أتى بها على أبلغ ترتيب (ص١) والرجل قد جعل وسيلته فى تناول موضوعه سرد الأحاديث والأخبار والأشعار ثم التعليق عليها ، وأحيانا يكون الخبر وحده مغنيا غناء باب من الشرح والتحليل ! .

فلا نستطيع أن نسلم أن ابن الجوزى عالم لم يكن له منهج محدود ، ولا نرى فى سرد القصص والأخبار عيبا يشين الكتاب ، بل هى مادة نافعة زودنا بها المؤلف ربما كانت أنفع من تناوله وبيانه ، وهى طريقة متبعة فى تآليف الأقدمين ، وهى فى حد ذاتها منهج معترف به .

ثم تأتى مسألة الإسرائيليات فى الكتاب ، أو الأخبار الواهية فيه على وجه العموم . فيرى الأستاذ أن ابن الجوزى حشا كتابه بقصص لا يعبأ بها الإسلام فى قليل أو كثير ، ويرى أننى لم أبين رأى الإسلام فى هذا الغث الذى يحدث ارتباكا فى المفاهيم الإسلامية .

والواضح لمن يقرأ الكتاب أننى تعقبت المؤلف فى مواضع كثيرة ، ألفت النظر إلى نبوها عن الحقيقة أو وهن قواها . ففى هامش ص ٢٢ عقبت على مجموعة قصص خرافية مستبعدا لها ومتمنيا لو أن ابن الجوزى لم يكترث بها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثم فى هامش ص ٥٧ استبعاد لخبر ذكره عن عمر . وفى هامش ص ١٠٥ و ص ١٠٦ بيان لوضع حديثين ذكرهما . بل إننى استنكرت ما يحكيه عن الإمام مالك وغيرهم من تشديدهم فى مجالسة الأحداث ولو فى ساحات العلم . وكذلك أخبار عن عمر ص ٤٩٨ وخبر منسوب إلى الرسول عن يوم الغميصاء ص ٥٠٠ وغير ذلك مما نفيته أو استبعدته .

وقد ذكرت فى المقدمة أن فكرة الإحاطة والجمع فى موضوع الهوى استولت على ابن الجوزى فألهته فى بعض الأحيان عن نقد ما يورده وفحص ما يذكره من أحاديث وأخبار . وضربت لذلك مثلا بأخبار يحيى ابن أكثم التى رواها بدون تحفظ وذكرت رد ابن خلدون وقلت : فما كان ينتظر من ابن الجوزى أن ينزلق إلى رواية كل ما قيل .

والعجب أن الأستاذ السمان ذكر فى نقده مثالا للإسرائيليات قصة عابد بنى إسرائيل الذى نظر إلى امرأة فقلع عينه .

مع أن ابن الجوزى علق على هذه القصة بقوله : إن قال قائل : هذا قد فعل معصية بقلع عين نفسه ، فكيف صارت طاعة يتوسل بها ؟ وأجاب : إذا صح النقل عنه حمل على أنه كان ذلك فى شرعهم جائزاً ، أما فى شرعنا فذلك حرام .

ثم إن ابن الجوزى فى كتابه ينقل تراثا بلغه وانتهى إليه ، فيه الحق وفيه الباطل ، وهو ليس فى مجال تشريع أو أحكام ، بل فى مجال موضوع نفسى محتاج لكل المؤثرات ، وهو يضع هذا الحشد من التراث ليوزن بموازين العلم وليفحص على مناهجه ، أما أن تنعى على كل ما نستغربه أو نستبعده فمعنى هذا إحراق كل الموسوعات الحافلة بأخبار الأقدمين وآثار العصور .

وهذا التراث كان مادة التصوف ووسيلة التربية النفسية فى عصر المؤلف وقبله .

وأخيراً يرى الأستاذ أن المسلم المثقف لا يرى فى الكتاب إلا صدمة لنفسه ومفهوم الإسلام عنده .

وهذا عجيب ، فالكتاب لم يتناول مفهوم الإسلام ولا هو من كتب العقيدة أو الشريعة ، وليس إلا رحلة خلال العصور تجمع تراثها فى ناحية الهوى والعشق من زاوية الإيمان والطهر ، ونهايته فصل رائع فى أدوية العشق فيها ذروة التحليل وأمارة الخبرة ، وفيه ألوان جديدة ورائعة من الأدب الإسلامى فماذا يصدم المسلم المثقف ، إلا أن يكون عنى بالثقافة شيئا آخر .

وأغلب الظن أن الأستاذ السمان لم يمنح هذا الكتاب من وقته إلا لحظات قليلة ولعله قلب بعض صفحاته فى نظرات عابرة جعلته لا يتبين حقيقته ولا يدرك مرماه .

وللأستاذ شكرى وتقديرى ؟

مصطفى عبد الواحد

(البقية فى صفحة ٣٨٤)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عليه وأوحدت به (١) ، ففتح الكفرة (٢) ودنخها (٣) ، وشرد الشرك شذر مذر (٤) ، وبخع الأرض فنخعها (١) ، حتى قاءت أكلها (٢) ، ولفظت خبيها ، ترأمه (٣) ويصلد عنها ، وتصدى (٤) له ويأباها ، ثم ظعن عنها على ذلك ، فأروني ما ترتئون ، وأى يومى أبى تنقمون ؟ أيوم مقامه إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا .

(١) وقولها ، أوحدت به : أى جاءت به منفرداً لا نظير له فى زمانه .

(٢) قولها : ففتح الكفرة : أى غنم بلاد الكفار .

(٣) ودنخها : أذلها وصغرها ، وفى غير هذه الرواية فدغنها بالياء أى دوخها ، كما يقال : تصوح البقل وتصيح أى تشقق .

(٤) وقولها : شرد الشرك شذر مذر أى أبعده قال الله تعالى : « فشرد بهم من خلفهم » سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٥٧ ، أى أوقع بهؤلاء ليسمع من خلفهم من الكفار فيفزع فيهرب فيتباعد عنك ، ويقال شردت القوم شذر مذر أى فرقتهم ولم أترك منهم أحداً ، ومثله تفرقوا شغر بغر جميعاً بمعنى واحد .

(١) وقولها : بخع الأرض أى شقها ، ونخعها استقصى عليها وفى غير هذه الرواية وبعج الأرض أى شقها

(٢) وقولها : حتى قاءت أكلها ، تعنى جبى خراجها وأخرجت خيراتها وثمراتها .

(٣) وقولها : ترأمه أى تعطف عليه .

(٤) قولها : تصدى له أى تعرض له

(بقية المنشور على صفحة ٣٧١)

حاكم غزة يشكر الأزهر :

السيد / مدير الثقافة الإسلامية

الأزهر الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدنى أن أنهى لفضيلتكم أن بعثة الوعظ والإرشاد بقطاع غزة تقوم بأداء واجبها فى الوعظ والإرشاد بين جميع السكان فى هذا القطاع بما يرضى الضمير وترتاح له النفوس .

وأن المجهودات المخلصة التى يبذلها أفراد هذه البعثة لتدعو إلى الإعجاب والتقدير ، وإننى إذ أسجل لأفراد هذه البعثة إخلاصهم وتفانيهم فى أداء واجبهم وتفهمهم الصحيح لحالة المنطقة ونفسية سكانها لأرجو أن تتفضلوا بقبول خالص شكرنا وتقديرنا على ما يبذله الأزهر الشريف ورجالاته من خدمات لأبناء هذا القطاع .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

فريق — **يوسف العجرودى**

الحاكم العام لقطاع غزة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

باب الفتاوى :

من أضابير لجنة الفتوى

يشرف عليه : ابراهيم محمد الأصيل

السؤال :

فى البلد مسجدان يصلى فى كل منهما الجمعة وعالم البلدة يوجب صلاة الظهر ؛ لأن الجمعة لمن سبق ولا يدرى من السابق ، فما الحكم فى مذهب الإمام الشافعى ؟

فريد المتولى حلاوة

الجواب :

أصل مذهب الشافعى عدم تعدد الجمعة فى البلدة الواحدة مطلقا ، أى لحاجة أو لغير حاجة ، لأنها لم تفعل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده إلا جمعة واحدة.

غير أن معتمد المذهب جواز التعدد لحاجة وبقدر تلك الحاجة ، فإذا كانت الجمعتان فى البلد لحاجة التعدد ، كانت الجمعتان صحيحتين السابقة والمسبوقة ، ومعنى الحاجة ألا يكون فى العمران مكان يسع المصلين ، أو كانت هناك دواع ودوافع نفسية كضغائن بين العائلات يخاف من اجتماعهم بسببها فى المكان الواحد أن تحصل الفتنة ، وعندئذ لا تجب صلاة الظهر ، إلا أن رعاية الخلاف مندوبة ، ونظرا إلى أن أصل المذهب عدم التعدد مطلقا فتندب صلاة الظهر مراعاة لذلك وطلبا لتبرئة الذمة ما أمكن.

فإن كان التعدد لغير حاجة أو زائدة على الحاجة فالجمعة لمن سبق ، فإذا لم يعلم السابق وجبت صلاة الظهر على تفصيل طويل يكفينا هذا منه .

السؤال :

ما حكم تعدد الجماعات فى وقت واحد فى مسجد واحد ؟

الشيخ محمد عثمان

إدارة الدعوة والمؤتمرات بوزارة الأوقاف

الجواب :

حكم التعدد وعدمه منوط بخوف الفتنة وعدمه ، فإذا خيف الفتنة كأن كان المسجد غير مطروق وله إمام راتب ولم يأذن الإمام الراتب فى التعدد ، كان التعدد مكروها . قبل جماعة الإمام الراتب أو بعدها أو معها ، لما فيه من الإشعار بالطعن فى الإمام الراتب وقد يؤدى إلى تعطيل جماعته ، فإذا تحققت الفتنة وأن القصد الكياد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

للإمام الراتب والإفساد عليه ، كان التعدد حراما ، وإن اتفق حصول ذلك ، لعذر فلا كراهة ، وإذا لم تخف الفتنة كأن كان المسجد مطروقا أو ليس له إمام راتب أو أذن الإمام الراتب فى التعدد ، فلا كراهة ، قبل أو بعد أو مع جماعة الإمام الراتب ، بشرطين : الأول ألا يقترن بالتعدد محظور كتشويش على مصل أو تخليط فى صلاتهم أو أقوالهم أو أفعالهم . فإن اقترن به شئ من ذلك بسبب التعدد كان حراما . الثانى انتفاء خوف الفتنة من جهة أخرى غير جهة الإمام الراتب ، وإلا كان التعدد ممنوعا كراهة أو تحريما على حسب تفاوت الأحوال المقتضية للمنع ضعفا وقوة : فقد يكون التعدد مكروها ، وقد يكون حراما تبعا لذلك . كما أنه إذا ألف التعدد فى المسجد المطروق ممن علم من حاله أنه يقصد الكياد للإمام الراتب والإفساد عليه كان حراما . فإذا انتفى احتمال الفتنة رأسا فالتعدد جائز بصوره الثلاث ، بشرط ألا يقترن به محظور كما تقدم . وعلى ذلك إذا رأى ولى الأمر أن يرتب فى بعض المساجد إمامين أو أكثر لأمر مصلحى يقتضيه فلا مانع منه ، بل هو من التيسير على المسلمين .

وهذا ما اختارته لجنة الفتوى من بين أقوال الفقهاء .

السؤال :

يريد الزواج من بنت خاله ، وقد رضع أخوها من والدته معه ورضع أخوه الأصغر من زوجة خاله مع شخص آخر فما الحكم ؟

السعيد محمد الحلو ـ القاهرة مصر الجديدة

الجواب :

لا مانع من زواجه بهذه الفتاة . لأنها أخت أخيه من الرضاع وأخت الأخ من الرضاع لا تحرم .

السؤال :

يريد شخص أن يأخذ طفلة شخص آخر ويتولى تربيتها ، وينسبها إليه : فهل يجوز ذلك شرعا ؟

الجواب :

نفيد بأن التبنى ونسبة الطفلة لغير أبيها الشرعى ممنوع شرعا قال تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

وحيث إن والد الطفلة معلوم لنا وهو موجود فهى بنته ، ويجب عليه تربيتها إن كان قادراً على ذلك ، فإن عجز فلمن قام بتربيتها نيابة عنه ثواب عمله « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

ويجب مع هذا المحافظة على نسب الطفلة ، حتى لا يختلط بغيره ، ويقع من جراء ذلك مخالفات دينية لا نعلم مداها الآن . وأما مع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نسبتها لغير أبيها على أن تأخذ حكم أولاد هذا الغير فى الميراث وغيره فذلك محرم وغير جائز لما تقدم .

السؤال :

هل يجوز الجمع بين المرأة وخالتها فى النكاح ؟

هيام إبراهيم عبد الحميد ـ القاهرة

الجواب :

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الجمع بين المرأة وعمتها ، والمرأة وخالتها ، والنهى للتحريم ؛ لأنه ليس هناك ما يصرفه عن الحرمة . وبذلك يكون الجمع بين المرأة وخالتها حراما .

السؤال :

كتب لزوجته يقول لها : أنت طالق ! أنت طالق ! أنت طالق ! فهل يقع ذلك ثلاثا أو يقع واحدة ؟ وإذا كان الطلاق ثلاثا فما هو الطريق الذى يتبع لإعادة الزوجة ؟ .

رداً على كتاب إدارة الثقافة رقم ٦٨٤ فى ٢ / ٣ / ١٩٦١ .

الجواب :

كتابة هذا اللفظ ثلاثا كالنطق به إذا قصد به معناه ، فإن قصد بأن يقع بكل لفظ طلاق فقد بانت الزوجة بذلك بينونة كبرى ؛ لا تحل إلا بعد أن تتزوج غيره زواجا صحيحاً ، ويدخل بها دخولا حقيقياً ، ثم يطلقها أو يموت عنها ، وتنقضى العدة ويعقد عليها عقداً جديداً بمهر جديد برضاها .

وليس مما يوجب حلها للزوج الأول ما يفعله المحلل من نكاحها بقصد التحليل ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المحلل والمحلل له ، واللعن يقتضى الطرد عن رحمة الله ، وما كان طريقاً للطرد والإبعاد لا يصح أن يكون طريقاً للمودة والوفاق .

أما إن قصد التأكيد أو لم يقصد شيئاً ، فلا يقع بذلك إلا طلقة واحدة رجعية ، إن لم يسبق ذلك طلقتان . وحينئذ فله مراجعة الزوجة ما دامت فى العدة ، فإن انقضت العدة قبل المراجعة عقد عليها عقداً جديداً بمهر جديد برضاها .

السؤال :

مات والدى فى حياة جدى ولى أعمام وقد صدر قانون الوصية فى حياة الجد ولكن الأعمام يدعون أنه لا ينطبق علىّ هذا القانون فما نصيب ذلك من الصحة ؟

عبد المنعم عبد الفتاح بسيونى
السنبلاوين / إتميد الحجر

الجواب :

المعتبر إنما هو الوقت الذى مات فيه الجد ، فإن كانت وفاة الجد بعد صدور القانون ثبتت الوصية لابن الابن أو البنت المتوفى فى حياة والده بمقدار نصيب والده فى حدود الثلث ؛ عملا بالقانون المذكور . وعلى ذلك فالوصية ثابتة لك وعليك أن تتخذ الإجراءات اللازمة نحو مطالبتك بهذا الحق .

بين الصحف والكتب

المرأة والشورى فى الإسلام :

ليس فى الإسلام ما يمنع من اعتبار المرأة مشاركة فى الشورى ، ولا من مشاورتها والعمل برأيها إن أصابت ؛ وذلك لأنها ممن يباح لها الاجتهاد فى الأحكام ويؤخذ بفتواها ، وقد كانت عائشة أم المؤمنين من أعلم الناس بالفقه وأقواهم اجتهاداً فيه حتى قال ابن حزم : يمكن أن يجمع من فتيا عائشة سفر ضخم ، وقال عروة : ما رأيت أحداً أعلم بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بفقه من عائشة ، وقال عطاء : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس .

ومن المفتيات المجتهدات غير عائشة من أمهات المؤمنين أم سلمة وحفصة وصفية وجويرية ، وحبيبة ، وميمونة ، ومنهن كما عند ابن حزم أم أيمن وأم يوسف الغامدية ، وفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهن ، وكانت عائشة ذات رأى قوى فى الشئون العامة يرجع إليها فى ذلك ، حتى قال عطاء : كانت عائشة أحسن الناس رأياً فى العامة .

ولم تتخل عائشة زمن خليفة من الخلفاء الذين كانوا فى عصرها عن التدخل فى الشئون السياسية العامة ، تارة مؤيدة وتارة معارضة حتى خاضت معركة الجمل ومعها عديد من الصحابة فيهم ، طلحة والزبير ، وحتى قال على عنها : لو كانت امرأة خليفة لكانت عائشة .

وقد شاركت نفيسة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار وأسماء بنت عدى بن عمرو بن نابى وأم منيع إحدى نساء بنى سليمة فى بيعة العقبة الثانية[1] ، وكانت البيعة على أن يمنعوا رسول الله مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وعلى أن يرحل الرسول إليهم .

وتلك مبايعة المؤمنين الأولين لرئيسهم ورسولهم .

وشارك النساء أيضاً فى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت وعدم الفرار حين توجه عليه السلام إلى مكة وأجرى صلح الحديبية .

وكانت بيعة الرجال على بيعة النساء المنصوص عليها فى القرآن على « ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن

(١) انظر سيرة الكلاعى وما نقله فى ذلك عن ابن إسحاق .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف ». وذلك ميثاق واثقن به الرسول عليه السلام .

وقد استشار النبى أم سلمة أم المؤمنين فى غزوة الحديبية حينما أمر أصحابه بالنحر والهدى والحلق والإحلال ثلاث مرات فتلكأوا فى تنفيذه فطلب عليه السلام رأيها فأشارت عليه أن يعطيهم القدوة من نفسه فيخرج ، ويصنع هو ماطلبه منهم ، فلما فعل ، استجابوا واقتدوا به ، وأكب بعضهم يحلق بعضا حتى كادوا أن يغموا بعضهم من شدة الزحام .

واستشار النبى عليه السلام بريرة فى شأن عائشة لما هلك فى أمرها عبد الله بن أبى ومن معه ، فقالت له : لا نعلم عنها إلا خيراً ، وإنما هى جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله .

وأراد عمر بن الخطاب أن يحد من صدقات النساء فقالت له امرأة فى المسجد ليس لك ذلك يا أمير المؤمنين ؛ لأن الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ولو لم يكن يصح إعطاء المرأة القنطار فى صداقها لما ذكره الله فى كتابه ، فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

واستشار عبد الله بن الزبير أمه أسماء فى حرب عبد الملك والحجاج ومن خرج معهما عليه ، فقالت له : إن خرجت لإحياء كتاب الله وسنة رسول الله ، فإن الشاة لا تعذب بالسلخ قمت على الحق ، وإن كنت إنما خرجت على طلب الدنيا فلا خير فيك حيا وميتا ، يا بنى مت كريما ولا تستسلم .

فإذا كانت المرأة قد شاركت فى مبايعة الرسول الرئيس الأول للدولة الإسلامية ، وشاركت فى التشريع عن طريق الاجتهاد والفتوى وإبداء المشورة فذلك ما يبين أن لها الحق فى أن تكون نائبة عن فريق من الأمة ، وأن تشارك فى انتخاب النواب والمستشارين والأصل فى ذلك قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

فقد أثبتت هذه الآية الولاية المطلقة للمؤمنات كما أثبتتها للمؤمنين وتدخل فيها ولاية النصرة كما تدخل فيها ولاية الحضور فى المساجد والمشاهد ومعارك الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد نص القرآن على التشاور بين الرجل وبين زوجته فى شئون الزوجية فقال : « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » . وإذا كانت الشورى مطلوبة لهذا الحد من أمر الأسرة ، فما بالك

بأمر الأسرة الكبرى وهى الأمة والدولة ، وكما أن الشارع لم يحرم نصف الأسرة الذى هو المرأة من حق التشاور، فلا معنى لأن يحرم نصف الأمة الذى هو المرأة من حق الشورى .

عادل الفاسى من مقال له فى (البينة)

المكتبات العامة ورسالتها فى المجتمع:

كلفت منظمة اليونسكو الأديب الفرنسى أندريه مورو بكتابة دراسة مسهبة تتضمن أهم ما يجب أن يعرفه القارئ العادى عن (المكتبات العامة ورسالتها فى المجتمع) والدور الذى يؤديه فى تغذية الثقافة ، وقد قدم الأديب المذكور هذا البحث الذى استغرق ٣٣ صفحة تناول فيها (١) المطالعة (٢) المكتبة (٣) المكتبة العامة وخدماتها (٤) مكتبة الأطفال (٥) أمين المكتبة (٦) اليونسكو والمكتبات (٧) مستقبل المكتبات العامة .

يقول أندريه مورو : « حضارتنا الإنسانية مجموعة من المعلومات والذكريات خلفتها تباعا الأجيال التى تقدمتنا لذا لا يمكن الإسهام بإنمائها إلا عن طريق الاتصال بالأفكار التى بلغتنا على الدهور ولكى يتم لنا ذلك ويصبح الواحد منا مثقفا أو مهذبا علينا أن نقرأ أى أن نطالع فليس ما يغنينا عن المطالعة أو القراءة سبيلا .

إن الكتاب سيبقى وحده رفيق الحياة ... ثلاثة لا رابع لها: الحب والصداقة والمطالعة . تستطيع أن تحب الكتاب لأنه صديق وفى صدوق . وإن الكتب أشد حكمة وأبلغ عظة من واضعيها لأنهم يودعون كتبهم خير ما عندهم .

إن الكتب تحدثنا حديث من هم فوقنا شأنا حديث من تألموا وسعوا وبحثوا كما نتألم ونسعى ونبحث فهى أبواب مفتوحة نطل منها على الغير من النفوس والشعوب .

فنحن نقرأ ونطالع لنسمو قليلا فوق واقع الحياة ولندرك أكثر فأكثر واقع الحياة فى الآخرين ، ولكن للكتاب غير هذه من المتع واللذائذ ، فهو لا يترك مطالعه كما كان قبل قراءته له فهو يسكب فيه من طابعه ويجعله أحسن وأكمل .

إننا الآن فى عصر نجد فيه الناس فى كثير من البلدان يزدادون يوما بعد يوم استمتاعا بالمساواة فى الحقوق، ويشاركون أكثر فأكثر فى عملية الحكم ، ويؤلفون رأيا له من الحول والشأن على الحكومات القائمة الكلمة الفصل ، فى حالتى السلم والحرب وتقسيط العدالة ورفع الظلم . وبكلمة أخرى فى حياة الشعوب فى العالم أجمع . وقوة الشعب هذه التى نعبر عنها بالديمقراطية تقتضى بأن يتم للجماهير التى أصبحت مصدر السلطات ، الوقوف على المشكلات الكبرى التى تستبد بانتباه العالم ،

والذى أعنيه بذلك : هو أن تنال هذه الجماهير أكثر فأكثر تعليما يبقى أبدا ناقصا مجزوءا ما لم توازر المكتبة عمل المدرسة وتتمه .

ليست المطالعة رياضة موصوفة قويمة للعقل فحسب فهى تكشف للأذهان الغضة الفتية الخصائص الخفية للحقائق التى سيتلقنها الطالب لقمة سائغة بل يتحتم عليه تكوينها بنفسه على أساس من الجهد الشخصى والأسلوب الواضح والنية الحسنة . فالمكتبة هى تتمة لازمة للمدرسة أو للجامعة ، ولا أعدو الحقيقة إذا ما قلت هنا : إن التعليم هو المفتاح الذى يفتح أمامك باب هيكل العلم ممثلا فى المكتبة .

فرسالة المكتبة فى العصر الحديث أنها منظمة تنبض بالحياة وتجيش بالنشاط فهى تتجه من القارئ وتسعى إليه وكلها رغبة بأن تشبع فهمه إلى المعرفة وتروى عطشه إلى العلم .

إننا إذا ما نمينا فى الإنسان الذوق إلى المطالعة وأمنا له ما يشبع نهمه منها لا نلبث أن نجعل منه رجلا سعيدا هانئا إذ نجعله دوما فى كل عطفة من عطفات التاريخ وجها لوجه مع حكماء البشرية وذوى الحجى وبذلك نجعل منه مواطنا فى كل أمة ومعاصرا لكل جيل .

مجلة المكتبة

مؤلف «قصة الحضارة» فى أيامه الأخيرة :

كان « ول ديورانت » مؤلف كتاب (قصة الحضارة) فى السابعة والعشرين من عمره عندما قرر أن يحقق حلمه الكبير فى تأليف هذا الكتاب وشرع فى القراءة والاستعداد لإصدار هذه الموسوعة الضخمة ، وكان قبل ذلك بعام واحد قد أصدر أجمل وأروع كتبه « قصة فلسفة » وقد باع من هذا الكتاب أكثر من ستة ملايين نسخة فى أمريكا وحدها وكان هذا الكتاب هو المظلة الواقية الذهبية التى عاش بها وتحتها حتى يومنا هذا ... وفى ظل هذا الكتاب الذى باع كل صفحة منه بألوف الدولارات ، عكف المؤرخ الأمريكى الفرنسى الكندى المولد ، ول ديورانت على تحقيق الحلم الكبير « قصة الحضارة » .

لقد صدر أخيرا الجزء الأول من المجلد السابع لهذا السجل الضخم ، وكان عنوانه : بدأ عصر العقل والجزء الثانى سيصدر سنة ١٩٦٣ بعنوان « عصر لويس الرابع عشر » والجزء الثالث سيصدر سنة ١٩٦٥ بعنوان «عصر فولتير» ويعتقد المؤرخ «ول ديورانت» أنه بهذا الجزء يكون قد حقق حلمه الكبير ، فيكون قد بلغ الثمانين من عمره ، وفى السن التى لا يقوى بعدها على أن يدفع « قصته » إلى ما بعد عصر نابليون .

وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى العربية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فترجم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى « مباهج الفلسفة » فى مجلدين ، وترجم المرحوم محمد بدران معظم أجزاء « قصة الحضارة » .

وقد تفرغ المؤرخ ديورانت تماما للبحث العلمى فلزم البيت فى حالة « سجن إرادى » ... فهو يصحو فى السادسة ويقرأ ويكتب فى السابعة حتى الظهر ويتناول غداءه ويستريح ساعة ويعود إلى العمل حتى العاشرة مساء ... سبعة أيام فى الأسبوع ... وهو يقرأ لكل مجلد صدر أكثر من ٥٠٠ كتاب ، ويسجل مذكراته وملاحظاته فى ألوف الصفحات ويختصرها إلى بضع مئات ، ثم يعيد كتابتها ثلاث مرات قبل نشرها وهو نباتى لا يأكل كل ما هو حى ، ولذلك فصحته سليمة ومزاجه معتدل ، على حد قوله .

وإذا كان فيكتور هيجو شاعر فرنسا له شعار هو : اكتب سطرا كل يوم .. فشعار ديورانت هو : ألف كلمة أنيقة على ورق أبيض لامع وبقلم جاف ، كل يوم .

أما النتيجة التى انتهى إليها ديورانت من قراءته لألوف الكتب ، واستعراضه لكل أحداث التاريخ فهى ، أن الدنيا لم تكن فى صفاء أبدا ، وأن العقل لم يحكم التاريخ أبدا ، وإنما التاريخ يتدفق فى قوالب نظرية ، ثم يعود يهدمها ويسخر من أفكارنا وعقائدنا ، ولا أمل فى تغييره ولا حكمه فى أن نفعل ذلك .

مجلة المكتبة

التفاهة فى حياتنا الفكرية :

« التفاهة ـ ويا للأسف ـ هى ما يلون حياتنا الأدبية فى الوقت الحاضر . وطبيعى ألا يرضى التافهون من الأدباء أن يقروا بذلك بل لعل طبيعة الدفاع عن النفس قد آل بهم إلى أن يقولوا فى أنفسهم من المديح والإطراء ما يخجل النفس الكريمة . فمن قائل منهم أن ما يكتبون يستحق الخلود ومن شاتم يقول إن مادون الخلود إنما هو تقصير فى حق ما يكتبون ، وهم وما يكتبون لا يساوون قلامة ظفر » .

تتجلى التفاهة فى حياتنا الفكرية عن طريق الصحافة أولا ، وعن طريق الأدب ثانيا . فالصحافة تنحدر من الأوطأ إلى الأوطأ .. ولو رجعنا إلى ربع قرن مضى لوجدنا أن المقالة والخبر مثلا ـ وهما عماد الصحافة ـ كانا فى مستوى لا يمكن أن نصلا إليه اليوم حتى ولا بعد ربع قرن من الكد والتعب .

لقد كانت المقالة محبوكة متسلسلة الآراء خالية من الحشو والأخطاء . أما اليوم فأكثر كتابنا إنتاجا فى الصحافة هم الذين يبدءون المقالة ذات العمودين بمقدمة سمجة تستغرق ثلث المقال لكى يبدأ الكاتب المفضال بعدها ببديهات سخيفة مكتوبة بأسلوب مهلهل غارق فى التفاهة والركة ، الخطأ الذى لا يرتكبه المبتدئون .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومع ذلك فإن أمثال هؤلاء الكتاب هم الذين لايخجلون من تصدر الحركة الفكرية فى البلاد .

وفى الأدب يتضح وجه القضية بصورة أجلى . ففى وسعك أن تقول : إن الإنتاج الأدبى فى حكم المعدوم عندنا بصورة تكاد تكون مطلقة . وفيما عدا بعض النتف والقصائد التى لا تبلغ الدرجة المتوسطة ، تستطيع القول مستقرا بأن لا إنتاج أدبى لدينا فى هذه البلاد يمكن ضمه إلى الباقة اليانعة التى تأتينا من البلاد العربية الأخرى ـ كلبنان ـ مثلا .

وإنى أتحدى من يقول إن لدينا إنتاجا أدبيا يعتز به ويستحق التحلى بهذه التسمية . وإذا ما خالفنى مخالف فسأرضى لعرض المناقشة بنموذج واحد لكاتب واحد أو أديب واحد من كتابنا وأدبائنا يوضع تحت المشرحة الأدبية . وليكن الحكم أى ناقد محايد .

ولا عجب بعد هذا أن تمتد التفاهة إلى الدوافع التى تدفع بالأديب إلى الكتابة . فالواقع أن حركة التأليف والترجمة قد انضوت تحت لواء السياسة بصورة عامة . ولا تكاد تجد ثقافة غير موجهة توجيها عقائديا إلا فى إنتاج المطبعة اللبنانية على نطاق ملحوظ ، ولذلك فقد ترك المجال يقوم على دغدغة الغرائز دون الاهتمام بالثقافة الفكرية بصورة عامة ، بل لقد وجدنا فى بعض ما يخرج من المطبعة العربية نوعا من الأدب الموجه يستخدم الضعف البشرى فى سبيل نشر الدعاوى العقائدية . وهذا انحدار خلق لا ندرى إلى أين يتجه بالذهن العربى فى هذا المعترك العظيم الذى تجتازه البشرية بعد الحرب الكونية الأخيرة التى يتوقعها الكثيرون .

ـ لقد عمت الفوضى ـ بمعناها المفهوم لا بمعناها القاموسى حياتنا وأصبح كل من يستطيع أن يكتب بضعة أسطر أديبا ، وكل مهرج قصصيا ، وكل ناظم شاعرا .

عبد الوهاب الأمين

الأخبار البغدادية

سوريا وسورية :

شاع فى الدوائر الرسمية وعند كثير من الكتاب خطأ فى كتابة اسم (سورية) فجعلوا يكتبونه ويلفظونه بيـــاء مشددة وألف أى (سوريا) على حين أن بعض الأمهات من معجمات لساننا ، وبعض المراجع التاريخية الموثوق بها قد أجمعت على كتابة (سورية) بياء مخففة بعدها تاء . ومن هذه المعجمات والمراجع : القاموس المحيط ، وتاج العروس ، ومعجم البلدان ، وفتوح البلدان ، وزبدة الحلب فى تاريخ حلب ، والتكملة فى حديث لكعب وغيرها . ولم نر الاسم المشار إليه مكتوبا بالياء المشددة والألف فى كتاب قديم يعول عليه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن المعلوم أن كثيراً من الكلمات الأعجمية التى عربت قديماً أو التى نضطر إلى تعريبها حديثاً تنتهى بالحرف [A] أو بالكلمة [GIE] الدالة على العلم . فالقدماء لم يتخذوا قاعدة مطردة فى إنهاء هذه المعربات بالتاء أو بالألف ، ولكن السليقة العربية جعلتهم ينهون معظمها بالتاء فقالوا مثلا إفريقية وصقلية وأرمينية وسلوقية وأشبيلية وغرناطة إلخ .

وبناء على اقتراحى كان مؤتمر مجمع اللغة العربية فى القاهرة اتخذ قراراً مؤرخا فى الخامس من يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٥٦ يقضى بإنهاء أشباه هذه الكلمات بالتاء ترجيحاً على إنهائها بالألف فيقال مثلا جيولوجية وبيولوجية وألمانية وإيطالية ترجيحاً على جيولوجيا وبيولوجيا وألمانيا وإيطاليا وهكذا .

ومع هذا فالموضوع فيما يختص بكلمة (سورية) لا يقبل التأويل مع وجود النص الصريح . ولذلك أعتقد أنه من المفيد، أو من الواجب، إذاعة بيان على الدوائر الرسمية والمعاهد العلمية فى الدولة ، لكى تكتب اسم (سورية) وفاقاً لما جاء فى الكتب القديمة المعول عليها ، أى بياء مخففة وتاء .

مصطفى الشهابى (مجلة المجمع العربى)

خطبة مجهولة للسيدة عائشة فى أبيها :

عثرنا ، أثناء تطوافنا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، على خطبة قصيرة للسيدة عائشة ، خطبتها الناس إذ علمت أن فئة منهم تنال من أبيها . فأبانت عن مناقبه ، وذكرت محاسنه ، وما كان له من سابقة فى الجاهلية والإسلام ، وما كان لإخضاعه المرتدة وحياطته الدين ومن شأن فى تثبيته وانتشاره .

هذه الخطبة تتصل بجانب من جوانب شخصية عائشة : هو جانب فصاحتها وبلاغتها. فقد أوتيت فيها البلاغة والإيجاز والشمول فى المعنى الذى قصدت الإبانة عنه . ونصها جدير بأن يقرأ ويدرس ويحفظ . وإذ كنا نرى أن النصوص التى خلفتها القرون الثلاثة الأولى ، هى مصادر ثقافتنا وينابيع حضارتنا وأنه لا بد من نشرها . فقد استحسنا أن نقدم نص هذه الخطبة فى هذه المجلة .

ولقد عنى الأنبارى - أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار المتوفى سنة ٣٢٧ هـ - بهذه الخطبة فأملاها ، وشرح ألفاظها . وعنايته بها ، وهو العالم اللغوى الثقة ، دليل على شأنها . لقد أورد الخطبة ثم شرح معانى ألفاظها . فهى تساعد ، على تاريخ تطور اللغة العربية، وعرفان الألفاظ التى كانت تحتاج إلى شرح فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم. والأنبارى كان من كبار علماء اللغة . وكان أوسع الكوفيين حفظاً ، ألف العديد من الكتب اللغوية . فليس غريباً أن يعنى بهذه الخطبة ويشرح ألفاظها ويدل على معانيها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بلغ عائشة رضى الله عنها أن قوما ينالون من أبيها رضى الله عنه، فأرسلت إلى أزفلة(١) من الناس ، فلما حضروا أسدلت ستارها وعلت وسادها ثم قالت :

أبى وما أبيه ! أبى والله لا تعطوه (٢) الأيدى ، ذاك طود (٣) منيف (٤) ، وظل مديد ، هيهات بعدت الظنون ! أنجح والله إذ أكديتم (٥) ، وسبق إذ ونيتم (٦) سبق الجواد إذا استولى على الأمد (٧) .

فتى قريش ناشئا، وكهفها كهلا ، يريش (٨) مملقها(٩) ويرأب (١٠) شعبها(١١) ويلم (١٢) شعثها ، ثم استشرى (١٣) فى دينه . فما برحت (١٤) شكيمته (١٥) فى ذات الله حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيى فيه ماأمات المبطلون.

(١) الأزفلة : الجماعة . (٢) وتعطوه : تناوله .
(٣) الطود : الجبل . (٤) المنيف : المشرف .
(٥) أكديتم : خبتم .
(٦) ونيتم : فترتم وضعفتم ، يقال : ونى ينى وونى يونى بمعنى واحد .
(٧) الأمد : الغاية ، وفى الحديث ليس لعذاب الكافر أمد أى غاية وآخر .
(٨) يريش : يعطى ويفضل .
(٩) المملق : الفقير .
(١٠) يرأب : يجمع ويلأم .
(١١) الشعب : المتفرق .
(١٢) يلم : يضم .
(١٣) استشرى : اشتد وانتكش .
(١٤) فما برحت : فما زالت .
(١٥) الشكيمة : الأنفة والحمية .

كان والله غزير الدمعة وقيذ (١) الجوانح (٢) شجى (٣) النشيج (٤) ، فأقصفت (٥) عليه نسوان أهل مكة وولدانهم يسخرون منه ويستهزئون به ، « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها وامتثلته (٦) غرضا (٧) فما فلوا (٨) له صفاة (٩) ، ولا قصفوا له قناة، ومضى على سيسائه (١٠) حتى إذا ضرب الدين بجرانه (١١) ، ورست (١٢) أطواده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشياعا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه

(١) الوقيذ : العليل .
(٢) الجوانح: الضلوع القصار التى تقرب من الفؤاد .
(٣) الشجى: الحزين (٤) النشيج : صوت البكاء .
(٥) أقصفت : انثنيت .
(٦) امتثلت : مثلته ونصبته .
(٧) الغرض : ما يقصد بالرمى .
(٨) فلوا : كسروا .
(٩) الصفاة : الصخرة الملساء .
(١٠) مضى على سيسائه : معناه على شدته ، والسيساء عظم الظهر وحده ، تضربه العرب مثلا فى شدة الأمر .
قال الشاعر :
لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
على يابس السيساء محدودب الظهر
(١١) الجران: الصدر، يقال للصدر الجران والبرك .
(١٢) رست : ثبتت .

صلى الله عليه وسلم اضطرب حبل الدين ، ومرج (١) عهده ، وماج (٢) أهله وبغى الغوائل(٣) ونصبت الحبائل ، وظنت رجال أن قد أكثب نهزها (٤) ، ولات حين الذى يظنون (٥) ، وأنى والصديق بين أظهرهم . فقام حاسراً مشمراً فرفع حاشيته (٦) وجمع قطريه (٦) ولم شعثه بطبه (٧) ، وأقام أوده (١) بثقافه (٢) ، حتى امذقر (٣) النفاق بوطئه ، فلما انتاش الدين (٤) فنعشه (٥) ، وأراح الحق على أهله(٦) ، وقرر الرءوس على كواهلها (٧) ، وحقن الدماء فى أهبها (٨) .

فلما حضرته منيته فسد ثلمته بنظيره فى المعدلة وشقيقه فى السيرة والمرحمة ، ذاك ابن الخطاب لله در أم حفلت له (٩) ودرت

---

(١) مرج : اختلط .

(٢) ماج أهله : اضطربوا وتنازعوا .

قال : حدثنا أبو بكر ، قال : حدثنا الكديمى ، قال : حدثنا يحيى بن عمر الليثى ، قال : حدثنا مسلم بن قتيبة ، عن وهب ابن حبيب ، عن أبى حمزة ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى قوله تعالى :

« فهم فى أمر مريج »

قال : مختلط ، أما سمعت قول الشاعر :

فجالت والتمست به حشاها فخر كأنه خوط مريج

الخوط : الغصن ، وجمعه خيطال .

(٣) وقولها . وبغى الغوائل : معناه طلبت له البلايا التى تضعفه .

(٤) وقولها : أن قد أكثب نهزها : معناه قرب ، والنهز : الاختلاس للشىء كما يظفر به مبادرة

(٥) وقولها : ولات حين الذى يظنون ، معناه : وليست الساعة حين ظفرهم

(٦) وقولها : فرفع حاشيته وجمع قطريه ، معناه فى الأمور وجد ، وتأهب وتشمر لنصرة الدين ، والقطر : الناحية .

(٧) والطب الدواء .

(١) والأود ، العوج .

(٢) والثقاف : تقويم الرماح وغيرها .

(٣) وامذقر : تفرق ، وفى رواية غير إسماعيل القاضى : وأبذعر النفاق : يقال : ابذعر الشىء وامذقر أى تفرق .

(٤) وقولها: انتاش الدين ، أزال عنه ما يخاف عليه

(٥) ونعشه : رفعه .

(٦) أراح الحق على أهله : أى أعاد الزكاة التى منعتها العرب ثم ردت إلى حكم الله وسنة رسوله فى أهلها لما قاتلهم .

(٧) وقولها : وقرر الرءوس على كواهلها : أى وقى المسلمين القتل . والكاهل : أعلى الظهر وما يتصل به .

(٨) وحقن الدماء فى أهبها : معناه رفع القتال عن المسلمين ، والأهب جمع إهاب ، وهو الجلد ، كنت به عن الجسد .

(٩) وقولها : لله در أم حفلت له : معناه جمعت اللبن لرضاعه ، والشاة المحفلة : التى يجمع لبنها فى ضرعها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عليه وأوحدت به (١) ، ففتح الكفرة (٢) ودنخها (٣) ، وشرد الشرك شذر مذر (٤) ، وبخع الأرض فنخعها (١) ، حتى قاءت أكلها (٢) ، ولفظت خبيها ، ترأمه (٣) ويصلد عنها ، وتصدى (٤) له ويأباها ، ثم ظعن عنها على ذلك ، فأروني ما ترتئون ، وأى يومى أبى تنقمون ؟ أيوم مقامه إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا .

(١) وقولها ، أوحدت به : أى جاءت به منفرداً لا نظير له فى زمانه .

(٢) قولها : ففتح الكفرة : أى غنم بلاد الكفار .

(٣) ودنخها : أذلها وصغرها ، وفى غير هذه الرواية فدغنها بالياء أى دوخها ، كما يقال : تصوح البقل وتصيح أى تشقق .

(٤) وقولها : شرد الشرك شذر مذر أى أبعده قال الله تعالى : « فشرد بهم من خلفهم » سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٥٧ ، أى أوقع بهؤلاء ليسمع من خلفهم من الكفار فيفزع فيهرب فيتباعد عنك ، ويقال شردت القوم شذر مذر أى فرقتهم ولم أترك منهم أحداً ، ومثله تفرقوا شغر بغر جميعاً بمعنى واحد .

(١) وقولها : بخع الأرض أى شقها ، ونخعها استقصى عليها وفى غير هذه الرواية وبعج الأرض أى شقها

(٢) وقولها : حتى قاءت أكلها ، تعنى جبى خراجها وأخرجت خيراتها وثمراتها .

(٣) وقولها : ترأمه أى تعطف عليه .

(٤) قولها : تصدى له أى تعرض له

(بقية المنشور على صفحة ٣٧١)

حاكم غزة يشكر الأزهر :

السيد / مدير الثقافة الإسلامية

الأزهر الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدنى أن أنهى لفضيلتكم أن بعثة الوعظ والإرشاد بقطاع غزة تقوم بأداء واجبها فى الوعظ والإرشاد بين جميع السكان فى هذا القطاع بما يرضى الضمير وترتاح له النفوس .

وأن المجهودات المخلصة التى يبذلها أفراد هذه البعثة لتدعو إلى الإعجاب والتقدير ، وإننى إذ أسجل لأفراد هذه البعثة إخلاصهم وتفانيهم فى أداء واجبهم وتفهمهم الصحيح لحالة المنطقة ونفسية سكانها لأرجو أن تتفضلوا بقبول خالص شكرنا وتقديرنا على ما يبذله الأزهر الشريف ورجالاته من خدمات لأبناء هذا القطاع .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

فريق — **يوسف العجرودى**

الحاكم العام لقطاع غزة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

الإخاء منشود والفرقة بغيضة

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(١) « فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » ٦ - « التوبة » .
(٢) « فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ١١ - « التوبة » .

لم تكن خصومة بين الناس أعنف من خصومتهم فى العقيدة منذ وجدت أديان ، ولا أطاح بالرقاب، وأهدر الحرمات والأموال مثل ما كان ذلك أو أكثر ذلك ناشئا عن جموح فى الرأى ، وانسلاخ عن الحق، وإلف للجهالة.

وطالما كان المجال الدينى معترك الفكر كان هذا المجال مزرعة الشيطان لوقود الفتنة بين الناس حول تدينهم ، وتصحيح إيمانهم ، أو تكاذبهم فيما يدينون . وكما كان الباطل يصاغ فى هذا القالب، ثم يساق إلى الناس فى أساليب الغيرة على الدين .

وما نسينا مما تعلمنا أن الحياة الإسلامية حينما بدأت تتخذ فى إطارها الجديد وضعا مستقرا ثارت فى وجهها الجدليات، ثم الملاحم بين ما فى الدنيا من ضلال قديم ، وما أشرق عليها من إصلاح جديد غير مألوف .

وفى هذا الاتجاه الناشئ يلحظ الله جنود دعوته فيعلمهم - أولا - أن يحترموا عهودهم التى يعقدونها مع الغير « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » - « وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا » .

ويعلمهم - ثانيا - أن يصارحوا بالعزم على التحلل من العهود قبل حلها ، إذا رأوا غيرهم يحاول نقضها « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين».

ثم يعلمهم - ثالثا - بعد التحلل من العهد : ألا يترفقوا بالعدو الغادر فى حرب ، وألا يهادنوه فى حصار ، أو يتخلوا عنه فى مرصد حتى لا يجد سبيلا إلى مهرب يحتمى فيه .

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد».

وغاية هذه التوجيهات : إذلال الناكثين للعهد المتجرئين على الله ، وكبتهم نظير ما بدأوا من الكيد لدين الله .

وفى هذا المقام يتمثل العداء سافرا ، والقسوة بالغة ، والنكال شديدا من جانب المسلمين ؛ لأن عدوهم كان فى عهد معهم ، والإسلام يأخذ أهله بالتزام الوفاء حتى مع خصومه .

فمحاولة العدو أن يغدر بعهد المسلمين تعتبر خدعة ماكرة ، فجزاؤه أدبيا أن يذوق وبال أمره ، والجزاء من جنس العمل ، وذلك قسطاس فى العدل .

ومع ما يبدو من هذا التضيق والتحريض على الكفار لم يترك الله لجنود دعوته أن تغريهم نشوة النصر فيسرفوا فى التشفى ، ويتجاوزوا الغاية المرسومة من الجهاد ، بل وضع أمام المجاهدين حاجزا يكفهم عن التمادى ويكلفهم أن يكونوا على هوادة مع عدوهم ، وأن يطلقوا حريته المكبوتة .

« فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

فحين تتحقق توبة المشركين بالتوحيد ، وفعل الصلاة والزكاة ، لم تعد بين الجانبين عداوة مشبوبة ، ولا دماء مهدرة ، وإنما هم فى كفالة الله ، وحرماتهم موفورة عليهم .

بل يضع الله أمام المجاهدين ذلك الحاجز توجيها شاخصا إلى تبدل الحال أكثر من ذلك بمقتضى الإيمان الذى دخلوا فيه وصاروا به إخوة متساوين « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وعندئذ انحسم الشرك ، واتحد القصد ، وانتظم الشمل بعد تقاطع ، وتقاتل . وكان السبيل إلى هذا ، أنهم تلاقوا على دين الله ، وانخلعوا من الكفر إلى الإيمان ، ومتى توافر الإيمان استقام الأمر ، وانقشعت الضلالات ، وتبين الرشد ... ذلك تقدير الله فى تشريعه ، وهو ماجرت به الأقدار على مسارح دنيانا : فى عروش الملوك ، وعلى كراسى الحكم ، وفى دوائر النفوذ على اختلافها : سعة وضيقا .

وكل نزعة تباين مارسم لعباده فى مسالكهم لن تكون لها غاية مرجوة ، ولا عاقبة مأمونة وإذا كان غيرنا يلتمس هذه التوجيهات فى كلام النصحاء : فحسبنا وزيادة أنها من قصص الله .

فليس ترديدها غريبا على مسامع المسلمين ولا بعيداً عن واقعهم ، وقد صقلتهم الأحداث ، وصهرتهم التجارب ، وذكرهم القرآن بهذا فى كثير من آياته .

فإن يكن الدين هو الجامع بين الأشتات المتنافرة ، وهو الذى ألف بين الوحدة الأولى فى تجميع هذه الأمة من قريش ومن الأوس والخزرج على ما كان لديهم من شقاق فلا يزال الدين - والحمد لله - قائما على أركانه الشداد ، ومكفولا بكتاب الله المحفوظ .

الإسلام هو الإسلام ، وهو الرباط القوى الوثيق بين أهله ثم بينهم وبين الداخلين فيهم حتى ليعتبرهم إخوانا ، غير ناظر فيهم إلى اختلاف لون ، أو لسان ، أو جنس فإذا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كانت هذه طبيعته ودعوته ، وسياسته ، وهذه ظاهرته التي تمثلت في أمته أينما كانت في مراحل زمنها .

فماذا جد فيه حتى نرى من أهله صفوفا تتخلف وجماعات تتصدع ، وسياسات تتمزق ورايات تتهاوى ؟ ؟

ماذا لحق بالجماعة الإسلامية حتى أصبح شأنها على غير ما بدأت ، وبات أمرها في ظلام؟ إن الله - سبحانه - لا يعطي النعمة جزافا ، ولا يقلد الملك اعتباطا .

وإنما هي اختبارات في العطاء أو مطاولة في الحكم والنفوذ ، وامتحان في الرحمة والعدل ، فإذا بدل الناس نعمة الله كفرانا ، وصيروا الملك طغيانا ، استرد الله نعمته ، وسلب من ذوي الطغيان سلطته ، وأقام البرهان من جانبه على أن الأمر إليه - أولا وأخيرا - وأنه لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ونعود فنقول :

دين الله كما وضعه الله ، والناكثون عن الدين هم الناكثون على أنفسهم وسنة الله تجرى على أوضاعها دون تبديل فيها .

وقد جعل الله تلاقي الناس على دينه مثابة إلى الخير ، وأمنا من السوء .

وجعل ذلك مع الكفار - على عهد الرسول - بأمور ثلاثة ، ذكرتها الآية :

تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .

بهذه الثلاثة تنفرج أزمة العداوة بينهم ، وبهذه الثلاثة يصيرون إخوة في الإيمان .

١ - أما التوبة منهم فإعلان التوحيد بالشهادتين .

٢ - وأما الصلاة فلأنها رأس العبادة البدنية وأحفلها بالدعوات والخشية لله .

٣ - وأما الزكاة فلأنها مواساة للفقراء ، وتحبب إلى القلوب ، وتعاون على النفع العام وبهذه الثلاث جميعا - يتضح - غالبا من حال فاعلها أنه آمن ، واطمأن ، وسار على المنهج الإسلامي كله .

وما بعد هذا من شئون دينية يكون مفروضا حصوله . . لأن المعلن للتوحيد وهو المتردد على فعل الصلوات والباذل لماله في الزكاة لا يشق عليه إن فعلها أن يستجيب فيما عداها لأن هذه الثلاث هي التي تجهده أكثر من سواها . وهذه هي الوجهة في اشتراطها لتحقق الإيمان من أولئك المعاندين

وهنا وقفة علمية تحتاج إلى تمحيص موجز .

١ - إذا وقف المرء عند هذه الثلاث ، ولم يفعل سواها أيكون قد تم إيمانه ؟ ؟

ظاهر الإطلاق في الآية يوهم ذلك . . ولكنه فهم لا يستقيم في نظام التشريع ، لأن أركان الإسلام فيها صوم وحج ، ولابد من الإيمان بهما ، ومن أدائهما عند القدرة ، كما تطابقت النصوص القاطعة .

وإنما اكتفت الآية بذكر الثلاثة من المشرك في أول إيمانه ، حتى تتسع له فرصة العمل بما بقي ، فإذا أنكر بعضها لم يكن مؤمنا حقا .

٢ - وتوجد أحاديث معتمدة فيما رواه البخاري ومسلم ، تدل على كفاية التصريح

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالشهادتين فى تحقق الإيمان ، مثل (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الخ) ، فلم يشترط فى الإيمان صلاة ولا زكاة كما ذكرت الآيات والأحاديث المرافقة لها .

٣ — بل توجد أحاديث معتمدة كذلك تكتفى بقول (لا إله إلا الله .. فقط) وبقولها وحدها يكون الكافر مسلما ويدخل الجنة .

وليس مشروطا أن يشهد لمحمد بالرسالة كما تدل تلك الروايات وخلاصة هذه الشبهة ـ أننا نرى توبة الكافر تكون بكلمة التوحيد فقط.

وعلى هذه النصوص يكون التلاقى على دين الله ممكنا بين الناس بمجرد كلمة لا إله إلا الله وهذا أيسر ما يقال ، دون التزام لأكثر منها . والتحقيق :

أن جميع النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله داعية إلى مقصد واحد : هو ترك الكفر ، والدخول فى دين الله على أكمل وجه : عقيدة ، وعملا وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يتحدث فى كل حالة بما يناسبها .

١ — فمرة يكتفى من المشرك بقوله (لا إله إلا الله) لأنه حين يقولها تكون أمارة على تخليه عن الشرك كله ، ودخوله فى التوحيد فنترك قتاله إذا كنا فى شجار معه ولا نعتقد عليه أمر التدين ، ونعطيه الفرصة فسيحة لإظهار دينه فى رفق .

٢ — ومرة لا يكتفى النبى بكلمة التوحيد إذا صدرت مثلا من يهودى كأن يقولها بحكم دينه .. بل لابد فى تحقق إسلامه من شهادته لله ولمحمد بالرسالة عامة لئلا يعترف بالرسالة ، وهو يخصها بالعرب وحدهم.

٣ — ومرة يطلب الرسول مع الشهادتين أداء الصلاة والزكاة فى موعدهما وهذا فى حالات تقتضى مزيد التأكد من إسلام من لم يكن مسلما وهذا ما وردت فيه آيات الموضوع ، وأحاديث تؤيدها فى المراد وعلى أى حال :

فالإذعان بالشهادة أو بالشهادتين أو ببعض العبادات كالصلاة والزكاة لا يغنى عن بقية عناصر التدين المفروضة فى تشريع الله ، والدين لا يتجزأ ، ولا يغنى فيه شأن ، عن شأن .

وتجزئة الدين تعتبر إيمانا ببعض الكتاب دون بعض ، وهذا ضرب من الكفر يأباه الله سبحانه .

والقرآن : يتجه بالناس إلى التلاقى على تدين صحيح ، وإخاء ناصح ، ويحذرهم دائما أن يخدعوا أنفسهم بالأمل الكاذب دون عمل خالص كما يحذرهم دائما أن يتخذوا لأنفسهم بطانة من عدو دينهم ويعلمهم أن عدوهم مهما تصافى لهم لا يريد بهم خيرا ، ولا يزيدهم إلا خبالا ، ولعل الله يحفظ بيضة الإسلام وشعوبه من مكر الماكرين بها من طريق الأغرار المتخلفين عن التلاقى على الدين .

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء